الطبقات المترفة والطبقات البائسة

للترف تاريخ يضرب فى أغوار القدم ، ولمظاهره المادية والأدبية آثار عرفها المتقدمون والمتأخرون من سكان هذه الأرض . وللبؤس كذلك تاريخ تمتد جذوره فى ماضى الإنسانية البعيد ، ولصوره المادية والأدبية الكئيبة معالم عرفها الأسلاف والأخلاف جميعاً ، وكلا الأمرين من ترف وبؤس تواردا على أجيال البشر ، لا كما يتوارد الليل والنهار تواردآ عاما منتظما يستوى الأحياء كافة فى الانتفاع بضيائه والهدوء فى ظلامه ، بل هو توارد آخر ، جعل ظلام البؤس قسمة لبعض الناس يعيشون فيه أبداً ، ويفقدون فيه أبصارهم — إذ أنها لا ترى فيه شيئا — وجعل شعاع النعمة مشرقاً على بعض آخر ، فهم يعيشون فيه أبدا ، وهم يعمون فيه كذلك من طول ما يبهرهم رونقه ويأخذ أبصارهم تألقه ! .

وفى ظهور الترف والبؤس توجد الطبقات المترفة والطبقات البائسة ، ويولد نظام الطبقات ، ويحدث التظالم الفردى والاجتماعى والسياسى ، وتنشأ معانى السيادة والرق والقداسة والضعة وتقرر شتى التقاليد المرتبطة بهذه الأمور ونحوها .

سر هذا التقسيم

وقر فى النفوس أن تفاوت الناس فى اقتسام الأرزاق سنة إلهية ، وأن انقسام الأمم تبعاً لذلك إلى طبقات تتفاضل بحسب ما تملك من متاع الحياة وخيراتها أمر طبعى قصد إليه الدين ، بل صرح به القرآن الكريم ، وفى تسويغ ذلك نزلت آيات شتى ، « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون » « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون » . . .

ونحن نقول بأن الدين منذ فجر الخليقة حارب فكرة انقسام الناس إلى طبقات على أساس ما يمتلكون من أنصبة مادية جليلة أو قليلة ، والآيات السابقة لا تخدم الغرض الذى تساق من أجله ، ولا يجوز أن يبقى فى ظلها نظام الطبقات المعروف بمآثمه ومغارمه ومظالمه .

فالآية الأولى إنما تدل على أن الله استخلف الناس فى الأرض ليعمروها وليكدحوا فيها . وفاوت بينهم فيما منح من الوسائل الأدبية والمادية التى تعين على ذلك . فالناس ليسوا سواء فى الذكاء والغباء ، وليسوا سواء فى العمل والكسل . ومن ثم يجب ألا يتساووا فى الأجر المادى والأدبى الذى يأخذونه بإزاء طاقتهم وجهدهم . وذلك معنى الابتلاء الذى تضمنته الآية والتهديد الذى ختمت به . والآية الثانية صريحة فى أن التفاضل فى الرزق — إن جاء من أسبابه المشروعة —

لا يسوغ أن يكون مثار جشع وحرص يجعل الفاضل بخيلا به على المفضول ، بل ينبغى أن يرد الممتازون بالمال بعض ما معهم على من تحت أيديهم من الخدم والأتباع وغيرهم شكراً لله على ما ميزهم به من مواهب وسلطان ، وليس فى الآية ما ينفى جعل التفاضل فى الرزق تابعاً للتفاضل فى العلم والفن وخدمة الوطن والمجتمع ، بل ذلك مفهوم من الآية الأولى ومن غيرها .

وأما الآية الأخيرة فهى تشير إلى أن جسم الأمة كجسم الإنسان ، لا بد فيه من رأس مدبر ، وعقل مفكر ، ومن أطراف تسخر للتنفيذ ، وأعضاء يستعان بها على بلوغ الغايات المقصودة . وهذه حقيقة مقررة فى كل نظام إنسانى ، فإن الناس لا يصلحون فوضى ، والمصالح العامة لأية أمة لا بد فيها من تنوع الوظائف إلى علمية وعملية ، وإلى مدنية وعسكرية ، وإلى زراعية وصناعية ، ومن هذه وتلك يوجد التافه والخطير ، والدقيق والجليل ، ولكى تصلح الأوضاع يختار لكل وظيفة من يستطيع القيام بأعبائها ، ومن ترشحه مواهبه للعمل فيها ، وملكات الناس فى ذلك متباينة أشد التباين ، فهذا مهندس المصنع يعمل فيه بعقله وهذا عامل مجرد يشتغل فيه بيده ، وهذا يتبع ذاك فيما يشير به ، لأن هذا يضع التصميم ، وذاك يقوم بالتنفيذ . والخضوع الواجب فى مثل هذه الحالات هو خضوع الجند لأوامر القيادة ، فليس هو ألبتة تسخير إذلال وقهر ، ولكنه تسخير نظام وعمل . هو ترتيب يشبه ترتيب الأعداد صعوداً أو نزولا فالأول قبل الثانى والثانى بعد الأول . وأساس هذا الترتيب أو هذا التسخير هو الكفاية الذاتية وحدها ! على أن الملاحظ فى البيئات التى يظهر فيها الترف والبؤس ويوجد فيها نظام الطبقات غير ذلك . إذ يقوم التفاوت المالى مقام التفاوت العقلى ، ويستنكر بروز النابغين من الطبقات الفقيرة وتوضع العوائق الكثيرة

لعرقلة نموهم وإخماد نارهم . وهذا ما سجلته آية القرآن الكريم حين حكت الاعتراض على نزول الوحى فى بيت فقير « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . . . » ثم حين ردت الأمور إلى نصابها جاعلة التفاوت العقلى وحده أساس انقسام الناس إلى حقير أو عظيم « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وهكذا تتخير الرحمة العليا محلها الذى تهبط إليه غير معترفة بالأساس الجائر للتفاوت المادى بين الناس فهو مقياس باطل لعظمة مزيفة ، ومن ثم تختم الآية بهذا التذييل « ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

أوضاع معكوسة

شتان بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون فى بلاد الإسلام البائسة المنكوبة بأفانين من الاستعمار الداخلى والخارجى . . إن الغنى والفقر وحدهما ميزان الطبقات هنا وهناك . الغنى الذى لا يعرف من أين جاء ، والفقر الذى لا يعرف كيف حل . فى مصر شعب تضطرب به سهول الوادى الفسيحة يكدح وينصب ليرتاح على ثمار جهوده نفر من الأعيان والوجهاء . شعب أقعده الشقاء وأضراه الحرمان ، وقلة أبطرها النعيم وأغواها الطغيان .

ما هذه الفوضى الشاملة ؟ وكيف تستقر هذه الخلقة باسم الدين .

أهذا هو الإسلام الذى يجعل العلم وحده مناط رفعة الدرجة ويجعل التقوى وحدها أساس امتياز الأفراد ؟ . أفتعطى الأعمال فى مصر على أساس الكفاية فى العلم والدين ؟ . . إذاً فما أسعد الوظائف بأصحابها ! أفينقسم الناس طبقات شتى على هذا الأساس عينه ؟ إذاً فما أشقى الفقراء بغباوتهم ! أم هى الأوضاع المنقلبة والحقوق المسروقة ؟ بلى إنها لكذلك ولو استقام كل شىء على وجهه الذى يرضى الله لارتقت جماهير هائلة من الحضيض الذى تتقلب فيه إلى مستوى آخر تسعد به ويسعد بها .

ما أحوج الشرق إلى أن تعمر العدالة الاجتماعية ربوعه الخراب ، وأن تنقل إلى الحياة الصحيحة شعوباً أعياها اللغوب ، وأضناها طول الغلاب . . .

أما استغلال الدين لتجريع الشعوب ما تغص به من مرارة الظلم وهضم الحقوق فهو ضرب قبيح من ضروب الإلحاد ، إن لم يكن أقبحها على الإطلاق .

استوقفت نظرى هذه الآية الكريمة . « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين » . فإنى شعرت بأن التساؤل الذى انطوت عليه الآية يتضمن اعتراضاً رأسمالياً صادقاً فى تصوير حالة قائليه . وأدركت أن الفكرة التى يصدر عنها الأغنياء فى تصرفاتهم مع الفقراء ، تكاد تكون قديماً وحديثاً واحدة لا تتغير ولا تتطور . وأساس هذه الفكرة الغائرة فى الماضى الممتدة مع الأيام ، أن الله جعل الأغنياء أغنياء هكذا لأن الله أحب لهم أن يستمتعوا بنعمة الغنى ، وأنه جعل الفقراء فقراء هكذا ، لأنه شاء لهم أن يشقوا بمصيبة الفقر . وأنه فاوت بين الناس بخلق المكثرين والمقلين قصداً إلى إقامة فوارق مادية طبيعية بينهم على أساس التفاوت فى ثرواتهم ، وأنه لذلك فضل البعض على البعض فى الأرزاق والمعايش فليس يجوز إيجاد أى نظام يصادم هذه الحقائق ؟ وقد زيف القرآن هذا الكلام الذى يحمل مسحة من المنطق وبين قيمة أصحابه عند ما عقب على تساؤلهم « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » بقوله لهم « إن أنتم إلا فى ضلال مبين » وذلك أن الأغنياء فى نظر الإسلام لا يجوز أن يبقى لهم غناهم كاملا ، وأن الفقراء لا يجوز أن يبقى عليهم فقرهم كاملا ولابد من أن يشترك هؤلاء وأولئك فى إقامة مجتمع لا يوجد فيه الرجل المترف والرجل المحروم ، وأن التفاوت فى

الأرزاق كالتفاوت فى المواهب لايصح أن يكون ذريعة لإهدار المصلحة العامة ، بل هو وسيلة إلى إقامة هذه المصلحة وتكليف كل فرد بنصيبه الشخصى منها — على قدر كفايته الذاتية الخاصة . وصحيح أن الله فضل بعض الناس على بعض فى الملكات والوظائف والحظوظ النفسية — ولا أظن الشيوعيين فى بلادهم يستطيعون هدم هذا المبدأ الطبيعى — فهم يعطون القائد أكثر مما يعطون الضابط أكثر مما يعطون الجندى . لكن هذا التفاضل فى الأرزاق لايعنى التقاطع بين الناس والتظالم بين الطبقات والتوقح على مقسم الأرزاق ، نقول له ما دمت قد أفقرت فلم نغنى ، ومادمت قد أغنيت فلم نفقر ؟؟ بل يجب أن نجعل من ذلك مبدأ تعاون تام واشتراك عام فى بناء مجتمع ينتفى منه الترف والبؤس ، ويسوده العدل الاجتماعى الشامل .

ومن الأقاويل التى سمعتها فى تبرير الحرمان والهوان التى تلقاه الجماهير الفقيرة ، أن الدين لم يفرض الزكاة فى أموال الأغنياء إلا على أساس اعترافه بالفقر والفقراء ونظره إلى ذلك نظرة لاغرابة فيها ولا إنكار ! !

وعلى هذه الطريقة فى الاستدلال يمكننا أن نقول : إن الدين لم يفرض الجهاد على المؤمنين إلا على أساس اعترافه بالكفر والكافرين ونظره إلى ذلك نظرة لا غرابة فيها ولا إنكار !!

ثم لكى نضمن بقاء فريضتى الزكاة والجهاد يجب أن نعمل على بقاء الفقر والكفر . وإلا لم يبق للأغنياء والمجاهدين عمل يقومون به إيماناً واحتساباً . . .

أرأيت كيف تنتهى الحماقة بأصحابها ؟؟

إن الله عز وجل لا يحب من الناس أن يشردوا أو يفسدوا وهو القائل : « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر »

ولا يحب لعباده كذلك أن يشقوا أو أن يفتقروا وهو القائل : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

فإذا كان اعوجاج الحياة الإنسانية على ظهر الأرض وزيغها عن سواء السبيل قد أدى إلى ظهور الفقر والكفر هنا وهناك ، فإن رسالة الدين تقوم على علاج هذا الانحراف ، وتستهدف رد الناس جميعاً إلى الإيمان والأمان ، كما تقوم رسالة الطب على علاج الأمراض وقتل جراثيمها ، فهى لاتهادن المرض لحظة . وكما تقوم رسالة العلم على محاربة الجهل واكتساح ظلماته لا تسكت عن ذلك قط . . .

فالقول بصداقة الدين للفقر ، يشبه القول بصداقته للكفر ، يشبه القول بصداقة العلم للجهل والطب للمرض !!

إن الخطأ قد يكون طبيعة فى البشر . وتاريخ الإنسانية لايعدو أن يكون سعياً نحو الكمال ، وتخلصاً من الآفات العقلية والأوزار الاجتماعية التى تعترض هذا السعى الحثيث ، لكن بقاء الخطأ فى طبيعة الإنسان لا يرقى بالخطأ إلى اعتباره ضرورة من الضرورات المحترمة . . .

فمن الخبل أن يظن بالدين ميله إلى بقاء الفقر ، لأنه أعد له مثلا فريضة الزكاة . أجل . سيبقى الناس متفاوتين فى أرزاقهم ، بعض فوق بعض أو بعض دون بعض فتلك سنة الحياة ، ومهما اجتهدنا فى تعميم العدالة وتوزيع الخيرات فسيبقى من يستحقون الرحمة والعطف ممن يحيف عليهم الخطأ والنسيان ، ولن تعم الناس حالة يستغنون فيها قط عن رقابة الدين ويقظة الضمير ، مادامت منابع الظلم فى شيمهم لا يدركها جفاف ! !

صراع بين قوى الشر وقوى الخير

تتضافر نصوص الدين الصريحة وقواعده العامة على تحقيق وحدة الأمة فى ظل العدالة الاجتماعية الصحيحة . ونستطيع أن نرى مصداق ذلك « نظرياً » فى آيات القرآن الكريم « وعملياً » فى السنوات الأولى من عهد الخلافة الراشدة التى يصح اعتبارها امتداداً لعهد النبوة . أما مراحل التاريخ الإسلامى بعد ذلك فقد اكتنفتها فتن مزعجة ومظالم دامية . وعملت السياسات الغاشمة عملها على مر القرون ، كيما تصرف المسلمين عن لباب دينهم وتعلقهم بقشور خفيفة الوزن من تعاليمه ، فأصبح ما يعرفون منه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

أما القرآن نفسه فبقى ناطقا بالحق وإن هجره الناس ! وإذا كان التاريخ العام قد حفظ للغباوة الأوستقراطية سجلا حافلا بمهازل الشرف المزعوم ومساخر النبالة الكاذبة . . . فقد جاء فى القرآن الكريم عرض مستفيض لما ردد القوم من أكاذيب ، وما تعودوا ادعاءه من كبرياء . ثم لم يزل يكشف خباياها ويفضح زيفها ويظهر بطلانها ويهزأ بغرورها حتى لتكاد تلمس فى ثنايا الآيات أنقاض ما انهدم من نظام الطبقات . وتسمع عند تلاوتها آخر ما أرسلت النعرة الكاذبة من أنفاس قبل أن تفر من طريقه .

رأى القرآن فى الطبقات المترفة

يرى القرآن أن فى وجود هذه الطبقات خطراً داهما لا يفتا يتهدد الحياة الإنسانية ويملأ مستقبلها بالغيوم والرجوم ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وعلى حقها يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة للحيلولة دون ظهور الترف والمترفين بين بنيها وقد ذكر القرآن عدة أسباب لتبرير هذه الخطة الحاسمة .

أولا — يقرر القرآن أن المترفين أعداء كل إصلاح وأنهم خصوم الحق المتألبون ضده فى كل زمان ومكان ، لاتكاد تنبت دعوة للحق والخير حتى ينحازوا بعيداً عنها ، متخذين نحوها صفة أحزاب « المعارضة » . . . . المعارضة الخسيسة التى تريد أن تهزم حديث الخير والعدل بحديث الثروة والمال . ومطالب العقل المتطلع إلى الهدى بمطالب الجوف المتطلع إلى الشبع ، ومنازع الروح التواق إلى الحرية والكمال بمنازع المادة المتعلقة بالرفاهية الناعمة والجمود البليد . . . ومن هنا وجه إليهم القرآن اتهاما عاما وألحق بهم وصفا ثابتا فقال « وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين » . وهكذا ندد القرآن بموقف هذه الفئة المتسامية واعتدادها بما تملك من متاع واستحمق تفكيرها الذى يربط مجد الدنيا وسعادة الأخرى بكثرة الأموال والأولاد « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا . . وهم فى الغرفات آمنون » . وفصل القرآن فى كثير من سوره موقف الطبقات المترفة تجاه كل كتاب منزل وكل نبى مرسل ، فكان التكذيب واحداً للدين الواحد الذى بعث الله به أنبياءه من لدن نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد صلوات الله عليه وسلامه ومما يثير العجب تشابه الرد الذى انتظم على ألسنتهم جميعاً حتى لتكاد تجزم بأنهم يشعرون بعاطفة واحدة ويدافعون عن مصلحة واحدة . . . فى رسالة نوح وفى صاحب الرسالة وأتباعه يقص القرآن هذا الرد « فقال الملأ الذين كفروا من قومه : مانراك إلا بشراً مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى . وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

وفى رسالة هود « فقال الملأ من قومه — الذين كذبوا بلقاء الآخرة

وأترفناهم فى الحياة الدنيا — ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون » .

وفى رسالة صالح « قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون » .

وفى رسالة شعيب « قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » .

وفى رسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه « فاستكبروا وكانوا قوماً عالين . . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ فكذبوهما فكانوا من المهلكين » .

وقد رأيت فى رسالة محمد صلوات الله عليه وسلامه كيف ضاق المشركون ذرعا بقرآن لم ينزل على رجل من القريتين عظيم — وكيف استهانوا بمن آمن به حتى قالوا : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » وكيف أخرجوهم من قريتهم وحاربوهم فى مهاجرهم « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » .

ورسالات الإيمان والإصلاح التى حمل لواءها الأنبياء كانت تهدف إلى المساواة بين الناس أمام إله واحد . يدين له الجميع بالطاعة ، ويصدع الجميع بما يأمر به وينهى عنه ثم يساهم الجميع — على سواء — فى إقامة صروح العدالة والفضيلة والدفاع عنها .

ولكن الذين ورثوا الجاه والتسلط والعدوان ، ومردوا على الترف والغرور والانتفاخ ، رفضوا أن يتقدموا خطوة فى هذه السبيل ، حتى ذكر القرآن فى معرض الأسف والغضب هذه الحال المنكرة « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض !

إلا قليلا ممن أنجينا منهم . واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

ولم يستثن القرآن من الرسالات التى لاقت هذا العنت إلا رسالة يونس . ولعل قريته خلت من هؤلاء المترفين المعوقين « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » .

ثانياً — ويقرر القرآن أن الطبقات المترفة مصدر فساد عريض ومثار فتن متجددة ، وأنها بجوار غيرها من طبقات الأمة تشبه المستنقع الراكد ، لاتزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتنبعث منه روائح الحمى ، فإما تدارك المصلحون الأمر فردموه واستراحوا منه وإما بقى على حاله فاسداً مفسداً حتى يعم الوباء ويستشرى الخطر وتصاب الأمة بالفناء العاجل يلحق كيانها كله . فأساس التأخر والدمار الذى يصيب الأوطان والشعوب هو من هذه الطبقات أولا « وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقوا فيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْل فدمَرناهَا تدْمِيرا » ومرجع ذلك إلى أن حياة الترف تخلو دائما من مشاغل العمل وأسباب الكفاح . ويتسع الميدان فيها للبطالة واللهو . وطبيعة الشهوات الإنسانية أنها إذا لم تجد حدوداً تقف عندها . طغت بأصحابها وسخرت قواهم للأغراض الدنيئة فإذا كان الحكم والحكام لايتجاوز حدود هذه البيئات إلا نادراً فماذا تكون حال الأمة التى تنكب به ؟ وعدوى الفساد الخلقى والاجتماعى والسياسى تمتد من أعلى إلى أسفل وتكون دائرة محكمة من التقاليد والمظاهر الفارغة . فإذا حدث أن فردا أو أفراد من طبقة أخرى استطاعوا بجهدهم وسعيهم أن يكتسبوا من المال والجاه مايرفعهم عن حدود الطبقات التى خرجوا منها ، وينظمهم فى عداد المترفين السعداء ، فإن مسلكهم العملى ينسجم أتم الانسجام مع مقتضيات حياة الترف وتقاليد المترفين

ثم ينسون على مر الأيام نشأتهم الأولى ولا ينتظر منهم إلا أسوء ماينتظر من الأوتقراطيين المتوقحين .

ولهذه الشهوات الحمراء وقودها الذى تشتعل به . ولن يكون هذا الوقود إلا حطام الطبقات البائسة بعد أن يراق دمعها ، ويستنزف جهدها ، ويجف عودها ، ثم يرمى بها فى أتون المطامع والمظالم لكى ينعم من ينعم ويستريح من يستريح ، ومن هنا فليس أبغض لدى هؤلاء المترفين من كل دعوة توقظ الراقدين وتقيم القاعدين ، وتلفت أصحاب الحق إلى حقهم ، وليس أحب إلى قلوبهم من أن تبقى الشعوب جاهلة لأن العلم ينير لها طريق النجاة . مريضة لأن القوة تخلق روح التمرد ، والصحة توحى بالأمل والنشاط . فقيرة لأن ثمر عملها لو كان لها ما بقى منه فضل يتسع للبذخ والسرف وصدق من قال « ما رأيت إسرافاً إلا وإلى جانبه حق مضيع » وعند ما تكون الشعوب بهذه المثابة تسقط من أول ضربة يتناولها بها الاستعمار الخارجى . وتلك هى علة العلل فيما أصاب الشرق أخيراً من انهيار وانحطاط « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » .

وقد أدرك المستعمرون هذه الحقيقة فمهدوا لبقائهم فى البلاد التى احتلوها بإبقاء نظام الطبقات ، وضمنوا للمترفين ما يصبون إليه من حياة رغدة وتركوا كتل الشعب الكبرى يموج بعضها فى بعض ، تطلب الضرورات الأولى للجسم والنفس والعقل فلا تجد من ذلك إلا جرعات تسكن ثورانها أن ينفجر ، أو تبقى على العبيد الرمق الذى يحيون به لخدمة السادة . . . فحسب .

ثالثاً — ويقرر القرآن أن المترفين أعداء الشعوب . وأن على الشعوب التى تريد الحياة الكريمة فى الدنيا والحياة السعيدة فى الآخرة ألا توالى هؤلاء الطغاة ، وأن تأبى الدخول فى طاعتهم والإذعان لأوامرهم .

وإلا كان مصيرهم مصير القائلين « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

وذلك أن عقلية هؤلاء المترفين تقوم على زعم أن ميراث الأرض وخيرات الدنيا وتصريف الأمور ليس إلا احتكاراً لهم ووقفاً عليهم — اختصوا به لأمر يجهله الناس — وأنه ليس على الناس إلا أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن يقدموا لهم أنفسهم وأموالهم وحرياتهم وحقوقهم طائعين فإذا حدثت أحداً نفسه بغير ذلك فيجب أن ينفى من الأرض التى عصى أمر سادتها : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم » — بل إن هؤلاء القوم يحسبون أن دعوات الإصلاح والعدالة ليست إلا ستاراً يختفى وراءه الطمع فيما يستمتعون به من سلطان . فكل صيحة تنادى بالإصلاح الاقتصادى والعدالة الاجتماعية وتتيح لأبناء الأمة أقساطاً متساوية من الحياة الصحيحة وتجعل الناس لا يذلون إلا لبارئهم وحده . هذه هى فى عرف هؤلاء الطغاة وفهمهم صيحة لمنازعتهم السلطة ومشاركتهم الدولة ومقاسمتهم الثروة ، يتذبذب فى صدورهم بعد سماعها منطق المتأهلين من آل فرعون عند ما قالوا لموسى : « أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين » .

ومثل هذه العقلية الجامدة على موروثاتها ، المستهينة بحق الحياة الصحيحة لغيرها ، لا يجوز أن تلقى من الشعوب إلا النبذ والاحتقار . فإذا سول الشيطان لبعض الأذلاء المتملقين أن يعيشوا لهم أتباعاً ، يأكلون على موائدهم ، ويدفعون عن مبادئهم ، فهم مع من ارتبطوا بهم فى الدنيا والآخرة . خزى يتبعه خزى ، وعذاب يلحقه عذاب : « وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ،

فهل أنتم مغنون عنا من الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا . ما لنا من محيص » .

هذه أسباب — أجملناها — لرأى القرآن فى الطبقات المترفة !

ونحن حين نرسل نظرات خاطفة إلى تاريخنا الطويل ، نجزم بأن قوى الشر انتصرت فى كثير من الأعصار والأمصار . ونرى أن الطبقات المترفة لم تلبث أن استعادت سلطانها الذى أفقدها الإسلام إياه يوم أن كان الوحى غضاً طرياً ، ويوم أن كان الحق عزيزاً بجنده وأنصاره . . فلما انتقلت مقاليد الأمور إلى عبيد الشهوات وجلادى الشعوب وقف سير الحضارة العادلة الرشيدة ، بل تراجعت تراجعاً آلياً فى نواح كثيرة . .

ولو استقرأنا أحوال ثلاثة عشر قرناً من الصراع الصامت العنيف بين الحق والباطل ، وبين الظلم والعدل ، وبين الشورى والاستبداد لراعنا أن حساب الأرباح ضئيل لا يكاد يبين ، وأن حساب الخسائر سيل لا آخر له ، ولرأينا أدلة واقعية تتزاحم أمامنا شاهد عدل على أن الأمم التى تسلم زمامها للمترفين من أبنائها إنما تسلم عنقها لجزار أثيم .

وعلى ضوء هذا التاريخ المؤسف يجب أن نفكر طويلا . . إذا أردنا الحياة ، ويجب أن نعزم على اتخاذ كافة الوسائل التى تقيم الموازين القسط بين طبقات الأمة ، وأن نغلق الباب إلى الأبد فى وجوه المتعطلين والمنتهزين .

تاريخ قديم . . .

تأتى على الأمم فترات تنسى فيها مثلها العليا ، وتشتغل بخسائس الحياة وتوافهها ، ويتجه نشاطها العقلى والإجتماعى إلى اللغو واللهو . هذه الفترات كساعات الإغماء للانسان الحى أو كساعات الذهول للعقل المفكر ! ! إذا طالت كانت لها عواقبها الخطيرة بل إن أخطر ما يعترى الأمم من انتكاسات وهزائم إنما يبدأ فى هذه الفترات الطائشة .

وقد أتى على الأمة الإسلامية عصر بل أعصار كان ساستها وقادتها لا شغل لهم إلا البحث عن اللذائذ والجرى خلف الشهوات وإشباع النزوات الدنيئة بفنون من العبث والمجون ! وولدت جراثيم الانحلال فى جسم الأمة يومئذ ، ثم مشت فى دمها ولم تزل بها حتى أوردتها سوء المصير وكان الشعراء المرتزقون كالصحافيين المأجورين فى هذا العصر يتملقون الطبقات المترفة ويصفون حفلاتهـــا الماجنة وصفا مغريا ويسكتون سكوت المقابر عن وصف حالة الشعب وتصوير بأسائه وضرائه لأن الثمن كان يغدق عليهم إغداقاً من دوائر المال الكبرى ومن المصاريف السرية ومن طوائف الكبراء المنتفخين ! وبلغ فجور بعض الشعراء فى العصر الأندلسى أنه ألف شعرا أنطق به الحمائم فى أغصانها وجعل أنغامه مشابهة لهديلها ! ! فقال :

إن الحمـــام بأيكها تشدو
هل قد علم أو قد عهد أو كان ؟
كالمعتصم والمعتضـد ملـكان ؟

وهكذا أنطقوا الحمام — وهى رسول السلام — بمدح أقوام كانوا حربا على مستقبلها ، وعلة أصيلة فى الهزائم المتلاحقة الشنيعة التى سحقت دولة الأندلس ومحت معالمها محوا لا نظير فى التاريخ . والمعتصم والمعتضد اللذان ورد ذكرهما فى هذا المدح الغريد قد تناولها شاعر آخر من حكماء الشعر البصيرين بأقدار الرجال وسياسات الدول فذكرهما فى معرض السخرية والازدراء وقال :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وما أحوجنا — والعظة حافلة فى ماضينا الحافل — أن نحشد الأقلام والألسنة لتعلن على المترفين حربا لا تنتهى حتى ينتهوا فلن تقوم فى الشرق

دولة عادلة وفيها مترفون ! ولن تبقى على الزمن إذا بقى لهؤلاء المترفين أذناب مروجون وصحافيون مأجورون وشعراء مرتزقون .

هل للرذائل أسباب اقتصادية

العقائد الدافعة إلى العمل الصالح والخلق الفاضل هى ، لباب الدين ومحور تعاليمه ، وغاية ما يصبو إليه الدين أن يجد الجو الملائم لغرس عقائده وظهور آثارها من خلق وعمل . فإذا ضمنا هذا الجو الرحب فقد أمكن الدين أن يحقق رسالته . وإلا فالدين لا يعدوا أن يكون بضاعة تباع للناس فى بطون الكتب ، أو كلاما تنقله له طائفة من الرجال ، ويكون الدين حينئذ موجوداً على هامش الحياة فقط .

وقد رأيت بعد تجارب عدة أننى بين الطبقات البائسة ، لا أستطيع أن أجد الجو المعقول لغرس العقائد العظيمة ، والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ! ! إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية ، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عارياً . إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التى تقيم أوده كإنسان ، ثم ينتظر منه بعدئذ أن تستمسك فى نفسه مبادىء الإيمان . .

ولقد وجدتنى كثيراً أعالج وعظ الناس فى بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل ، فكنت أحار . . ما أقول لهم . . أقبح لهم الدنيا كما هو مفروض على علماء الدين ؟ .

إن الدنيا لن تكون أقبح مما هى عليه فى أعين هؤلاء التعساء وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمسّ من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام ، وجمهورهم لا يدرى الأساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة ، فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه وإخوانه و . . . حكامه .

أعرفهم بالله عز وجل ؟ إن معرفة الله لا سبيل إليها إلا بعد معرفة

النفس ، فإن من عرف نفسه عرف ربه . وهؤلاء التعساء مذهولون عن أنفسهم تائهون عن حاضرهم ، وإن الشعور بالهوان والحرمان شل تفكيرهم فأنى يعرفون ربهم ؟ أو يشعرون بما قدموا له . إنهم أعجز من أن يقدموا الحساب عن يومهم ، فهيهات أن يأخذوا الأهبة الحقة للدار الآخرة !

أنا لا أنكر أن وراء حنايا هم الضامرة قلوباً فيها إيمان ما وتدين ما لكن قيمة هذا كله تافهة لاتجدى على أصحابها كثيراً فى الدنيا أو الآخرة .

والدين الحق لايؤدى رسالة فى هذا الجو الخانق ، ولا تثمر عقائده فى هذه البيئات العقيمة . ولابد من التمهيد الاقتصادى الواسع ، والإصلاح العمرانى الشامل ! إذا كنا مخلصين حقاً فى محاربة الرذائل والمعاصى والجرائم باسم الدين وهداية الناس لرب العالمين . أما أن نترك الظروف التى تلد الجريمة حتما تنمو وتتكاثر ثم نكتفى فى خدمة الدين بالنصائح المجردة والعواطف المفتعلة ، فهذا فى الحقيقة هو العبث المبين .

ولست هنا أنكر قيمة الوازع الأدبى ، أو أحاول بخس الضمير الإنسانى حقه ، فقد توجد أحوال شديدة توقف الإنسان على شفا جرف وتطلق فيه غرائزه الدنيا ويتضافر الحرمان والإغراء على سوق المرء إلى الجريمة سوقا عنيفاً ومع ذلك يتراجع عنها ، ويستنكف مقارفتها . وتنتصر مواهبه العليا آخر النزاع .

غير أن هذه الأحوال لايجوز انتظارها من كافة البشر . بل لايجوز انتظارها من إنسان وحده طول الحياة مهما بلغ فضله وربا علمه .

وخير لنا أن نتعرف الأمور من وقائع الدنيا ، وأن نقرر أن النسبة الكبرى من الرذائل تعود إلى واحد من ثالوث الفقر والجهل والمرض ، أو إلى اثنين من هذا الثالوث البغيض أو إلى أفراده جميعاً . وأن زوال هذه الآفات الإنسانية ، يخفض نسبة الجرائم فى بلادنا ٩٠ ٪ .

ونحن نعرف أن فى مصر آلافا من العلماء الذين ينتمون إلى الدين وينبثون فى معاهده ومساجده ، وينطلقون فى المدائن والقرى يبشرون ويخطبون . فهل وصلنا بعد هذا المجهود المادى والأدبى الواسع إلى درجة من الرقى ، والسلامة الإجتماعية كالتى وصلت إليها بعض الدويلات الأوربية مثل سويسرا مثلا ؟ لا . فشتان بين عدد الجرائم عندنا وعندهم وما أضخم القضايا التى تنظرها المحاكم عندنا من جنايات وجنح ومخالفات والعلة الأصيلة فى هذا أن اختلال التوازن المادى والأدبى ، مكن لشياطين الإجرام أن تعمل وتنجح ، فكيف لايتدخل الدين فى تغيير هذه الحال ، إن أراد لنفسه البقاء ، ولرسالته التحقيق ؟ بل كيف يستغل الدين لإبقاء هذه الحال المنكرة . وهل معنى ذلك إلا أنه ينكر نفسه ويخفض رأسه ويحفر رمسه ! ! ؟ ؟

ولنضرب مثلا ببعض الجرائم الشائعة لنرى مصداق ماقلنا .

السـرقة

جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية تتراوح بين قطع اليد وقطع العنق عند ما تكون السرقة فى الخفاء وعند ماتكون السرقة بالإكراه (قطع الطريق) ، وعقاب كهذا ليست به شائبة قسوة مادام القصد من تنفيذه تأمين الحقوق ، وصانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال ، لا السطو على كسب غيرهم والعيش به من حرام . ولكن هذه الأغراض كلها تذوب فى مجتمعنا الذى يزخر بأسباب التملك الباطل ووسائل الاستغلال المريب .

فاذا قامت حول الجريمة شبهات تجعل العقاب لا يحقق هذه المصالح وجب إيقافه ، ومن هنا أمر النبى صلوات الله عليه وسلامه أن ندرأ الحدود بالشبهات . وأمر عمر رضى الله عنه أن يعطل إقامة حد السرقة

فى عام المجاعة ! ورأى فقهاء الأئمة أن دعوى الملك فى المسروق تمنع من الحد — مادامت شبهة الملك معتبرة — وقصد الشارع من وراء هذا الاحتياط ألا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة . يد اللص المعتدى على حق غيره يسرقه غير قانع بما عنده وهو يكفيه ويغنيه . . والمجرمون الذين يعدون من هذا النوع قلائل . . بل إنهم يعدون على الأصابع من بين الآلاف التى تقدم إلى المحاكم . . والاضطراب الاجتماعى الخطير فى هذا الوادى هو الذى يصم باللصوصية أقواما كان من الممكن ألا يوصموا بها قط . ويبرىء من اللصوصية أقواما كان ينبغى ألا تنفك عنهم أبداً ولعل من أيسر الأمور إقامة مجتمع تقل فيه جرائم السرقة أو تختفى لا بالإرهاب والقطع والقتل . ولكن بمنع الأسباب النفسية أى بمنع الأسباب المادية التى تلجىء إلى السرقة فى أغلب الأحيان .

عندما تفتح أبواب العمل ، وتضبط مصادر الكسب ، وتحدد أسباب الملكية وقيمتها ، وعندما يعرف نور الحياة ونور العلم طريقه إلى المشردين من أبناء الأمة . وعندما يحول تعطل الطبقات المترفة إلى عمل ، وتستثمر أموالها فى المشروعات التى يفيدون بها ويفيدون منها . . عندئذ تقل جرائم السرقة حقاً ! ويومئذ يستحق السراق أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

الزنا

جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش . ولعل الاختلال الاقتصادى بما يخلفه من بؤس وترف أهم الأسباب المؤدية إلى انتشار هذه الجريمة ، حتى نظم القانون[1] العام وقوعها وأوقات ارتكابها ومع من ترتكب ،

(١) صدر بعد ذلك قانون بتحريم البغاء . ومع غض النظر عن النتائج المرتقبة لهذا التشريع القاصر نرى أن له بقية لم تأت بعد فهناك الحفلات الراقصة والسهرات العابثة والليالى الحمر . وإلغاء قوانين البغاء لايغنى عن إلغاء تقاليد البغاء فهى منه أخطر .

واعتبرت أسواق البغاء العلنى وحفلات الليالى الساهرة من الأمور المعتادة للطبقات الصغيرة وللطبقات الكبيرة ، غير آبهين للصياح المختنق الذى يرسله رجال الدين بين الحين والحين .

ومواجهة هذه المشكلة لاتكون بالاستنكار السلبى فما أسهل هذا الاستنكار على متعودى الخطب الوعظية ، وما أحقر أثره فى تغيير الواقع الأثيم .

إن الشهوة الجنسية لا بد أن تتحرك ، فإذا لم تتح لها الحركة الطيبة لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة . والعصمة المؤقتة أو الدائمة عند بعض الرجال الفضلاء أو الرجال الهادئين لا يصح الالتفات إليها عند وضع تشريع عام يراد به حفظ عفاف الأمة ، وصيانة قوى الشباب المادية والأدبية والعقلية .

فإذا أردنا باسم الدين قمع هذه الحركات الخبيثة للشهوة الجنسية فيجب أن نيسر وأن ننظم أسباب الاتصال الجنسى الحلال وأن نفرغ من العمل على وضع الحلول الصحيحة لهذه المشكلة المعقدة . ولن يكون ذلك إلا بإعادة النظر فى فهم حقيقة الزواج والأساليب العسيرة التى يتم بها الآن . . والطبقات الفقيرة والمتوسطة تواجه مع الزواج ثلاث مشاكل . فالمهر عقبة ، وقد يسهل اجتيازها فتبقى مشكلة الدخل الذى يكفل حياة زوجين ، ثم هناك مشكلة الدخل الواسع الذى يكفل حياة أولاد تجب تغذيتهم وتربيتهم على خير وجه . وهذه كلها عوائق اقتصادية لا يقوى الدين بالكلام على حلها . وإنما يفرغ الدين منها عندما يبنى المجتمع الذى لا يبقى فيه فقير ولا حقير ، والذى يقدم للفرد الضمانات المعقولة لرعاية أسرته ورعاية مستقبلها . والذى يسخر فيه إنتاج الأمة لإسعاد الأمة كلها لا لترف بضعة أفراد منها . فإذا تم ذلك ، تم القضاء على نسبة ضخمة من جرائم الزنا . وإذا صودرت أسباب الترف لدى المترفين ، تم القضاء كذلك على جزء آخر

من مظاهر الفسق والخلاعة والتحلل . فمن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدنا له طريق الفضيلة ، وجب جلده أو رجمه ، بل وجب قتله رمياً بالرصاص ! .

التعطـــل

هو جريمة خلقية واجتماعية ، تصاب الأمم من جرائها بشر مستطير . وقد نهى الدين عنه ، ووصى بأن يعمل المرء أى عمل يقيم أوده ، ويحفظ حياته وكرامته . والتعطل نوعان ، تعطل المترفين أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . وقد أشرنا إلى الأضرار الناجمة من ترك هؤلاء بلا عمل يشتغلون به ، والنكبات التى تصيب الشعوب من وراء تبطلهم ! ولما كان لابد من سد ذرائع الفساد وجب الحجر على هؤلاء السفهاء ، وضغط حرياتهم الشخصية حتى يتحولوا أفراداً منتجين ، وحتى تكون ثرواتهم المدخرة مصادر خير لهم ولغيرهم .

وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة ، وينتظم الألوف المؤلفة من أبنائها ، وتأوى إليه جرائم التسول والتشرد والفساد والعدوان . وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لاريب فيها . وفائدة الدولة من استغلال هذه القوى المضيعة لا ريب فيها كذلك ، ومن المستحيل قطع دابر هذا التعطل بالنصائح ، مهما ارتفعت فيها حرارة الإخلاص ، ومهما سيق فيها من آيات الله والحكمة ! لأن الضوائق الاقتصادية الناشئة عن طغيان الاستعمار الداخلى محكمة الحلقات ، بل هى تخلق التعطل خلقا ، وستظل السبل ملأى بالمتعطلين والمتسولين ، الأصحاء منهم أو أصحاب العاهات ، إلى أن تفض هذه الحلقات المضروبة ، وإلى أن يصبح العمل ضريبة يلزم بها كل فرد ، فإما دفعها واستحق الحياة ، وإما دفع دونها دمه وأخلى الطريق للعاملين .

وقد سنت أخيراً قوانين للعمل هى دون مثيلاتها فى أوربا ، وحددت أجور العمال فى مصالح الحكومة ولكن العمال الزراعيين يشتغلون شهرين من العام بأتفه الأجور ثم يتعطلون سائر العام ، والعمال فى شركات الاحتكار يأكلون لقمتهم مغموسة بالسم كما يقولون . وكثيرون من أبناء الأمة موارد رزقهم مبهمة ، ونهاية حياتهم مظلمة ، وهم لو وجدوا أبواب العمل لاقتحموها ولكان إنتاجهم فيها مضرب الأمثال . . . !

أمثلة وقاعدة

هذه صورة سريعة لبعض الرذائل الخلقية والاجتماعية التى يضطرب فيها مجتمعنا ، والتى تمخضت عنها الأوضاع الاقتصادية المعوجة عندنا . ولو ذهبنا نستقصى أسباب الكثير من المعاصى الدينية ، لوجدنا الضمير الإنسانى يعانى محنا قاسية ، ولوجدنا الفطرة الإنسانية لا تلبث وهى فى سذاجة الطفولة — أن يدركها من الشقاء مايطمسها ، فإذا تخطت إلى دور الرجولة ، حالت خلقاً آخر لا تنتفع به دنيا ولا ينتفع به دين ، خلقاً يقارف الرذائل والمحاقر من الأمور ويعيش لها عيشته المشوهة الناقصة ، حتى يوارى فى بطن الثرى فلا تسمع له ركزا .

أحلال هذا أم حرام ؟ إن رجلين عاقلين لا يختلفان فى حرمة هذه الحالة . وقد وضع أئمة الفقه الإسلامى قاعدة ثابتة : « كل ما أدى إلى الحرام فهو حرام » . فلا بد إذاً من إعادة التوازن الاقتصادى على أساس لا تبقى معه هذه الموبقات ، ولا تتوطن فيه هذه المفاسد الشائنة فإذا لم نفعل هذا فأخوف ما أخافه أن ينكب دين الله ودنيا الناس جميعاً نكبة ساحقة ماحقة ، إذ تتهم الدنيا بالظلم والطغيان ، ويتهم الدين بالسكوت على الظلم والجمود أمام الظالمين . وينبغى أن لا ننسى إذ نقرر

هذه الحقيقة صيحات رجال الثورة الفرنسية (أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) ؟ .

فقد اعتبروا الدين متآمراً مع الأورستقراطية على قتل الشعب وإهدار حقوق الإنسان . ويقول القرآن الكريم محذراً من عواقب هذا الاختلال الاقتصادى . « وكَمْ قَصَمْنَا مِن قريةٍ كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحَسُّوا بأسَنا إذا هم منها يركضون . لا تركُضُوا وارْجِعُوا إلى ما أُتْرِفتم فيه ومَسَاكِنِكُمْ لعلكم تسألون . قالوا ياويلنا إنا كنَّا ظالمين ، فما زالت تلك دعْواهُمْ حتى جعَلْنَاهم حَصِيداً خَامِدين » .

وأنت تسأل إذ تقرأ ذلك . ما السر فى أن يناقش الظالمون الحساب فى مساكنهم التى قضوا فيها حياتهم الآثمة ؟ ثم لا تلبث أن تدرك الحكمة البالغة ، فى أن تكون ساحة المحكمة هى الديار التى شهدت المجرم باغياً عاتياً . وهل أدل على إشعار الجانى بما اقترف من أن يكون استجوابه أمام جسم الجريمة ومادتها ؟ وإذاً فليكن حساب المترفين أن تعرض أمام أعينهم مظاهر من دنياهم المسرورة . وإلى جانبها مظاهر من دنيا البائسين المقهورة ، ثم يؤخذ من المقارنة بين الحالتين نص الاتهام ودليل الإجرام . وسوف يذوق الجانى عقابه آجلا إن أفلت منه عاجلا ، والظلم أبداً مرتعه وخيم .

اعتراض ورد

قد يقال أين هى آثار نظام الطبقات ، وما هذا التهويل فى الكلام عن الأوضاع الاقتصادية المختلة مع أن الناس جميعاً يأخذون أنصبتهم من الحريات العامة بأقساط متساوية . وهم — مهما تفاوتوا — سواء أمام القانون ، كما نص على ذلك الدستور ؟ ؟

وهذا كلام قد تبدو عليه مسحة الصحة ، ولكنه فى باطن أمره عليل ! فليس القانون الموضوع ليتحاكم الناس إليه هو كل شىء حتى يذكر هذا الاعتراض . فهناك تقاليد مقررة وقوانين قائمة هى أعمق أثراً وأشد نفاذاً فى بيئاتنا كلها أقامت من الفوارق بين أبناء الأمة الواحدة ما يتعذر معه أى إصلاح . ولقد أقمت سنوات فى المدن وسنوات فى الريف فرأيت أعراض هذا الداء متفشية فى كل مكان وتأكدت من أن كرامة الفرد محدودة الثمن ، يشتريها ويدوسها — إذا شاء — موظف صغير ، وأن طبقات الأمة لا تستمتع بالمساواة الحقة الكاملة فى العلم وفى الحكم . بل فى الطعام واللباس والتمريض والتوجيه العام . والتفكير الأوتقراطى الذى شرد جبلة بن الأيهم ، لايزال يملأ رءوس الكثيرين من سادتنا الذين لم يشردوا بعد . حتى هذا التفاوت العجيب يظهر فى الثياب التى نرتديها ! تلك الثياب التى جعلت من الأمة المصرية الواحدة « كرنفالا » لا تؤذن مهازله بانتهاء ، فكأن الأزقة والميادين تأخذ أمداد المارة من عدة شعوب ، أو كأنها تعج بخليط ضل منبته الأصيل فليس يدرى أعربىٌ هو أم أعجمىٌ . ومع ذلك نزعم فى أنفسنا وحدة الفكر والشعور والاتجاه ! فأين ذلك من وصية النبى محمد صلوات الله عليه لصاحبه أبى ذر بشأن خادمه « أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس » .

ومن آثار هذا الاختلال أن تلوثت حقيقة الخير فى النفوس حتى هبطت إلى مستوى لم تهبط إليه من قبل . وأين — برب الناس — معنى الخير فى حفلات لاهية صاخبة ، يرصد دخلها لإعانة المنكوبين وكيف يأبى المترفون إلا الحرص على متعهم الحقيرة حتى فى الساعات التى يصطرخ فيها الأشقياء ، فيأبى هؤلاء أن يرسلوا إغاثتهم إلا وقد أخذوا فى مقابلها لذة وأطفأوا شهوة . أتراهم لو شعروا بالإخاء الصحيح والمساواة الكاملة التى تربطهم بجمهور الشعب . أكانوا يستسيغون ارتكاب هذه السفاسف الوضيعة ؟

وقد انتشر هـذا الفساد — من أعلى إلى أسفل كما أشرنا سابقا — فإذا ألقيت نظرة عجلى على المنشآت الخيرية وجدتها لم تقم غالباً على بر خالص أو سماحة مشكورة ، بل وجدت الكثير منها تأسس على مال « اليانصيب » وهو المال الذى دفعه أصحابه طمعاً فى أن يرتد إليهم أضعافا — وليست هى الأضعاف السبعمائة التى ينتظرها المؤمنون ، بل هى الأضعاف المبهمة التى ينتظرها المقامرون — ولست أعرف الخير ينتزع انتزاعا من مصادر الشر ، كما أعرفه فى هـذه المستشفيات والمبرات التى تستميت فى أخذ المال من جيوب لا يبذل أصحابها شيئا فى سبيل الله ، على حين يبذلون الكثير فى سبيل غيره .

ومن آثار هذا الانحلال أن ظهرت هذه الأورستقراطية العلمية الشائعة فى كثير من الأوساط المثقفة ، ففى الوقت الذى لايزال جمهور الأمة يفكر فيه بعقلية الزنوج الهمل تحت وطأة الجهل المتراكم عليه من قرون ، نرى البعض يفكر بعقلية اللاتين أوالسكسون ، أوالأمريكان ، ويحيط نفسه فى البيت وفى النادى وفى الملهى بهذا الجو الغربى البهيج الألوان ، والهدف الفذ لهذه الطائفة أو لأغلب أفرادها ، أن يحولوا قوتهم العلمية إلى قوة مالية فهم يتكالبون على شراء الممتلكات المختلفة من عزب وعمارات وبذلك تتآمر شتى العوامل على إبقاء الطبقة الدنيا فقيرة من العلم فقيرة من المال ، فقيرة من القوة والسلامة والعافية . ونشأ عن ذلك أن معظم درجات التعليم لايطيق الانتظام فى سلكها إلا القليلون من أبناء الطبقات العليا ، ونفر قليل من أبناء الطبقة الوسطى التى تكافح دائما لحفظ مركزها وصيانة حقوقها فى الحياة .

ورءوس هذه الطبقة كثيراً مايتكلمون عن الأمة الجاهلة كما تراها عقولهم الكبيرة ، والضعيفة كما تحسها نفوسهم القوية . يتكلمون عنها وهم لايشاركونها حياتها ولا يشاطرونها آلامها ، لأن من خصائص طبقتهم

الممتازة بالعلم والمال ألا تخالط المواطنين الآخرين إلا بحذر وقدر ؛ فالعلم والغطرسة على سواد الشعب متلازمان ، ولا يكاد أحد هؤلاء السادة يحيي الجمهور إلا بهزة واهية من ذراعه ، ثم لا تلبث قوانين الجاذبية أن توقف تذبذبها ثم تردها إلى وضعها السابق العتيد ،

ومن آثار ذلك أن الجندية يستطيع أن يفلت منها الأغنياء وأوساط الناس . أليس دفع (البدل) جائزاً ؟ وما دام ممكننا دفع ضريبة الجيب[1] بدل ضريبة الدم فعلى المساواة العفاء ! ومن الغرائب أنهم لما عدلوا هذا القانون جعلوا البدل الشخصى يقوم أحياناً بدل البدل النقدى . أليس هذا ذريعة ليتمكن المترفون من ابقاء أبنائهم معهم ، وليأخذ الجيش حاجته من أبناء الفلاحين والعمال فقط . مع أن الأمر الذى لاريب فيه أن الأمة أحوج إلى إبقاء الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، وأشد حاجة إلى كف هؤلاء المترفين عن عبثهم الفارغ ، وقيادتهم رغم أنوفهم إلى ميادين التدريب والتمرين .

ولا نريد أن نمضى فى سرد المظاهر الدالة على صدق ما أثبتناه أول هذا الكلام ، فهى كثيرة ملموسة ، ولا أن نضرب الأمثلة لما يحدثه تفاوت عناصر الأمة الشديد فى اقتسام أهم مقومات الحياة فما نظن أحداً يجهل ذلك . ولكن نريد أن نعرف . ماهى السبيل إلى تلافى هذه الأضرار والأوزار فنسلكها عاجلين مسارعين ، ولعلنا نوفق إلى وضع معالم الطريق ، بعد أن نوفى فى بحثنا هذا على غايته إن شاء الله .

---

(١) صدر بعد ذلك قانون تعميم التجنيد . وهذا حسن . وحبذا لو أبيحت ترقية ضباط الصف إلى ضباط عاملين بالجيش فان ذلك يفتح أبواب الأمل أمام الجنود . ويشعر الضباط بأن أنفار اليوم قد يكونون زملاء الغد مما يدعم الأخوة الواجبة بين المواطنين كافة من جنود وضباط .

هل للفضائل أسباب اقتصادية

أجدنى بحاجة إلى أن أوكد مرة أخرى قيمة الفطرة الإنسانية ، ومبلغ الكمال الذى تستطيع معنوياتها أن تصل إليه ، مهما أحيطت بالعوامل المضادة لها ، فقد تحتفظ الجذوة بحرارتها واشتعالها أمداً طويلا ، بين أكوام التراب البارد ! وقد تنمو فى جوف الصحراء أشجار تختزن فى أوراقها الماء والخضرة والرى ! وإقرار هذه الحقائق لاينكر حقائق أخرى ، تعلن أن الفضائل الإنسانية والقومية تفتقر فى نموها إلى موارد دافقة من أمواج الحياة الغنية الكريمة العزيزة ، وأن هذه الفضائل قد تذوى وتنتهى إذا لم تجد هذه الأمداد المتتابعة التى تمدها بالغذاء والنماء .

ومما هو جدير بالذكر أن النبى صلوات الله عليه وسلامه كان يستعيذ بالله كثيراً من الديون وشرورها ، وقد سمع ذلك منه مراراً ، حتى سئل فى ذلك فأجاب بأن المدين قد تلجئه قلة الوفاء إلى الكذب ، فإذا كانت بعض أحوال الدنيا توحى بالكذب فبعضها الآخر يوحى بالصدق والامراء ! ونريد نحن أن ننظر إلى بيئتنا لنرى أتوحى بالفضائل وتنشىء النفوس عليها أم لا ! .

وليس فيما شرحناه فى الفصل السابق غناء عن متابعة النظر فى هذا المعنى ، فنحن نقصد هنا بالفضائل المستوحاة من البيئة تلك الفضائل الإيجابية الجليلة ، من إنسانية عامة ، أومن قومية خاصة ! تلك التى لاتقوم على ظهر الأرض حضارة عظيمة إلا فى ظلها ، وفقدان العدالة الاجتماعية فى أنحاء هذا الوادى جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة . لاعمل لهم إلا ماتوارثوه من زراعة الحب وانتظار الثمار من الرب . فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم لم يجعل لهم من دونها ستراً . بل طلعت على قوم لايكادون يفقهون قولا !

وكان لزاماً فى هذه الحياة الراكدة الجامدة أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلى ، هبط بقواهم الأدبية هبوطه بقواهم المادية .

ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه ، يحتاج إلى غذاء دسم منظم لكى يستمر نماؤه ويتم كماله . وقد يحدث كثيراً أن تجد الرجل فى سن الخمسين ، ولكن عقله دون هذه السن بكثير ، وقد تجد له تفكير الأطفال ، وسوء فهمهم لشئون الحياة العامة .

والسر فى ذلك بين ، فبينما وجد هذا الرجل حاجاته الضرورية لجسمه من طعام وشراب ، فقد حاجاته الضرورية لعقله من علوم وثقافات وآداب . وقد يكون المعدن العقلى لهذا الرجل نفيساً ، ولكنه كالأرض الطيبة التربة ، لم تجد ماء ولا بذراً ، فلم تجد فيها حياة ولا ازدهارا .

ومن المحزن أن ننظر إلى كثيرين من أبناء أمتنا ، فنراهم قد أصيبوا بهذا الشلل العقلى ، والعقم الفكرى ، والهوان الأليم فى إنسانيتهم ، لأنهم حرموا فى طفولتهم وفى رجولتهم هذا الغذاء العقلى الذى لابد منه .

والنقص الأدبى لايحس به صاحبه كالنقص المادى — بل ربما أحاطت به أحوال تشعره بالكمال والعظمة ، وتهون فى ناظريه القيم المعنوية — ولو أن كل محروم من وسائل المعرفة والفضيلة ، يتألم لذلك ألم الجوعان لفقدان مايزحم معدته من وقود ، إذا لاستراح الناس واسترحنا من لوثات الأغبياء والأدعياء ! ! على أن المجتمع العام — بعكس الفرد وحده — شديد التأثر والإحساس بمدى الكمال المعنوى لمن ينتمون إليه ويعيشون فيه . فمن الناحية الدينية يحتاج الإيمان إلى الكمال العقلى . والله عز وجل يقول : « إتقونى ياأولى الألباب » .

ومن الناحية الدنيوية ، تقل الفوارق كثيراً بين الإنسان والحيوان كلما قل عقله ! فيهبط السلوك الإنسانى إلى الحضيض كما يهبط التفكير كذلك ونحن أمة أحوج ما تكون إلى العلم الواسع لتنتفع به فى دينها

ودنياها . وكيف الطريق إلى ذلك إذا لم تتلاش فوارق الطبقات ، ولم يتلاش معها التظالم الاجتماعى ، ثم يبنى المجتمع على أسس من احترام الإنسان ، وتقرير حقوقه ، وتنمية ملكاته وتدعيم فضائله . ذاك من الناحية الإنسانية ، أما من الناحية القومية فإن فضائل الشعوب الحية ينقصنا الكثير منها للأسف . إذ لابد لحياة الشعب من أن تتوفر فيه الحمية والأنفة والشجاعة والتضحية ، ولكن للأمية الغالبة على بلادنا أثر بالغ السوء فى تبلد المشاعر وضعف الفهم لقضايا الوطن ، وقلة الحماسة العامة لها ، وعدم انعقاد الإجماع على نصرتها ورواج النفاق السياسى بين المحترفين القدامى من الساسة العجائز الذين تقدموا الصفوف أولا ، وبين الهواة الجدد ممن أغرتهم المنافع . وظنوا الاشتغال بالسياسة كسباً لأشخاصهم أكثر مما هو كسب لهذا الوطن المغلوب على أمره .

ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة لمن يرقبون أطوار اليقظة القومية فى بلادنا . فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذى أمات الإحساس الصحيح فى جسم الأمة ، فهى تحاول النهوض فيطاوعها بعض أطرافها ، ويستعصى البعض الآخر ! وهى تنظر بعين فيها بوادر الغضب ، وفيها فتور النوم ! وهى تفتح فمها فلا تدرى : أتقول الكلمة الفاصلة ؟ أم لتتثاءب ، أم لتخلط بين الأمرين ! . وعند ما أعلن الطلبة غضبتهم[1] الأخيرة ، لمستقبل بلادهم الغائم ، كان على (القهوات) رجال يطالعون أنباء الطلبة كما يطالعون أنباء الصين ، ورجال يخرجون من الأزقة القذرة إلى أعمالهم المعتادة وهم يضحكون أو يتضاحكون ، ورجال آخرون فى صميم الريف يمسكون بأذيال البقر ، وينطلقون خفافاً

---

(١) فى مأساة (كوبرى عباس) المشهورة حيث قتل بضع عشرات من الطلاب على عهد الأقلية الحاكمة من رجال الحزب السعدى . وقد انتهى هذا العدوان الوحشى بسقوط الوزارة فحسب (!)

أو ثقالا إلى الحقول ليقضوا سحابة النهار ، ثم يعودون مع الليل الهادىء إلى القرية النائمة أبداً ، ذلك كله . . . لأن الوعى الاجتماعى ضعيف عندنا ، والفضائل القومية تبعاً لذلك فاترة مريضة ، ولكيما تقوى وتصح يجب أن نبحث لها عن الدواء ، ولن نعرف الدواء إلا إذا عرفنا أن للفضائل العامة والخاصة أسباباً اقتصادية ، يجب تعرفها وتقريبها ولنضرب المثل ببعض الفضائل المطلوبة ، لنرى مصداق ماتقول :

عزة النفس

فضيلة يطلبها الدين ويجعلها من خصائص المؤمنين وينكرها على الفاسدين فى أقوالهم وأعمالهم « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » ولكن مجتمعات البشر لم تقم على هذا الأساس . وحاولت أن تجعل للقلة والكثرة دخلا فى العزة والذلة ، وقديماً قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العـــزة للكاثر

والقرآن الكريم نفسه ، يصف المؤمنين قبل موقعة (بدر) بأنهم أذلة إذ يقول : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ، ويمتن عليهم بأنهم بهذا النصر انتقلوا من حال إلى حال ، وأنهم اشتدوا به مادياً وأدبياً ومعنوياً واقتصادياً « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات » .

ويمكنك أن تنظر إلى أحوال رقيق الأرض من الفلاحين . وإلى أشباههم من الطبقات البائسة . أتجد لديهم عزة نفسية ؟ وإذا وجدت شيئا من ذلك ، أتستطيع القول بأن ذلك يشبه عزة الموظفين والتجار

والملاك وغيرهم من أصحاب الأوضاع الاقتصادية الكريمة ؟ ؟ . لا . فحاجة النفس الإنسانية إلى سناد مادى لتقوى به وتعتز ، أمر لا بد منه ، وإلا فسيدركها ذل الاحتياج وهوان الشأن فى البيئة الفقيرة الحقيرة ! ولولا الكفاح المتتابع الحاد الذى قام ويقوم به العلم والإيمان ، لاستبد فى الأرض سلطان الكثرة والقلة فى المال والجاه ولأنكر على الطبقات الفقيرة كل شرف وتقدم . فلنغرس العزة فى النفوس — إذا شئنا — بالدعايات الواسعة والهتافات المدوية . ولكن لن يبقى بعد ذلك إلا أثر المكان الذى ينبت العزة ، والمجتمع الذى يمنح كافة الطبقات نصيبها المفروض لها من الإباء والتطلع والاعتزاز .

وقد يعقل الفقر الفتى دون همه وقد كان لولا الفقر طلاع أنجد

ومن المؤلم أن الذل اختلط بالدين الآن اختلاطاً سمجاً ، فكثيراً ماكنت أستمع إلى هذه الكلمة (رضيت بما قسم الله لى) من أفواه الفلاحين المنكوبين فى أرزاقهم ، ومن أفواه العمال المغصوبين فى أجورهم . ومن أمثال هؤلاء وأولئك ، ممن حظهم فى الحياة ضئيل ، ونصيبهم من الدنيا قليل ! فكنت أول الأمر مخدوعا بما تشير إليه الكلمة من إيمان وتسليم ، حتى تبينت أخيراً أن للكلمة الشائعة دلالة أخرى ، قد تكون أقرب إلى الواقع ، فرجعت أتساءل . . ترى هل هذا رضاء بالقدر فى أشد أحواله ، أم هو حرص على الحياة فى أحط صورها ؟ ولم يطل تساؤلى كثيراً ، فقد عرفت وجه الحق . إن المسألة لاتعدو الاستمساك بأهداب الحياة ، ولو كانت فى الدرك الأسفل من الشقاء ، والاستنامة فى مهاد الذل ، ولو كان مليئاً بالأشواك والأقذار . ترى هذا كله ثاويا فى قرارات النفوس المريضة ، تمكن له التعاليم الضالة والفكر الخاطئة ، فإذا به يظهر على الألسنة كأنه تسبيح وتحميد ، ولكنه فى الحقيقة الركون إلى معيشة العبيد !

وقد عاب القرآن قوما لأنهم يرضون بالحياة على أى صورها فقال : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . . . . يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » .

إن عدم الفرار من الحياة القذرة — ولو إلى الموت — مهانة نفسية ، لفت فى سوادها أكثر أقطار الشرق الإسلامى ، والغريب أن يكون هذا باسم الإيمان بالله ، والتسليم للقدر ، مع أن التجارب علمتنا أن الجرأة على الموت فضيلة لاتظهر إلا فى الشعوب الحية والأمم القوية ، وضريبة الدم التى نسمع عنها ! لايدفعها إلا أبناء هذه الأمم العظيمة .

وقد كان العرب الأوائل يحرصون على الموت ، أكثر مما يحرص أعداؤهم على الحياة . أما الحياة السقيمة فهم أبعد الناس عن الرضا بها أو الهدوء فى كنفها . فأين من هذا أقوام يطوون بطونهم على خشاش الأرض ثم لايرضون بهذا فقط ، بل يقولون : (اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال) . أليس زوال هؤلاء نعمة تستريح بها الحياة ؟ .

التعـــلم

فضيلة طالما أطنب الدين فى مدحها ، حتى جعل منزلة العالم بين العباد كمنزلة البدر بين سائر الكواكب ! وحتى جعل فضل العالم تشهد به الطيور فى الجو والحيتان فى البحر ! .

ولكن بمقدار ما مدح الدين العلم ، بمقدار ما أقدم الناس على الجهل فما حولتهم نصائحه بدوراً ولا شموعا ، ولا شهد لهم بالفضل طير ولا دابة ، بل قلت نسبة المتعلمين ، وفحشت نسبة الجهال ، ومنذ عشرين عاما والمصلحون يحاربون هـذه الروح المنكرة ، حتى استطاعوا أن يرفعوا نسبة المتعلمين إلى ٢٠ ٪ ، من بينهم من يحسن كتابة اسمه فقط ، ومن يحسن قراءة الصحف بعد إعلان الحرب على علماء اللغة جميعاً . وبديهى

أن تعميم التعليم بالنصح والإرشاد والترغيب أمر لا طائل تحته ، فإن الأمر يحتاج إلى إلزام عام تسخر فيه قوى الدولة ومواردها ! ويجب أن تلين أنظمة الأمة الاقتصادية والاجتماعية تبعاً لذلك حتى لا يبقى فى البلاد جاهل واحد . وإلا فلا قيمة مع الجهل لدين يبقى لنا ، أو لدنيا نحيا فيها . إن احتكار العلم كان قديماً إحدى الدعائم التى يعتمد عليها نظام الطبقات ، فكان الكهان والرهبان ومن على شاكلتهم يمنعون المعارف القليلة التى بين أيديهم أن تصل إلى غيرهم ، حتى لا يشاركوا فى القداسة والكبرياء المفروضين لطبقتهم . وقد أشرنا آنفاً إلى أن هناك أوستقراطية علمية تتمم زميلتها المادية ، ويعانى الشعب الأمرين فى ظلهما . ولا فكاك من هذه القيود المظلمة إلا باشاعة العلم ، وتحطيم الحواجز المجرمة التى تحرم الجمهور من أن يعب منه حتى يرتوى ويكتفى ، إن كان من العلم ارتواء أو اكتفاء .

وينبغى أن نجزم بأن العلة الأولى فى فساد التدين وتأخر أصحابه ، هى الجهل الثقيل الذى ضيق آفاق الحياة فى أعينهم وأفسد الذوق الإنسانى فى فطرتهم ، وأوقفهم أمام نصوص الدين وهم لا يفقهون . ذلك لأن القرآن نفسه يقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » . فكيف بعد ذلك يوجد مع الجهل دين ؟ وكيف يعم الدين القلوب ، إذا لم يعم العلم العقول ؟ وكيف يتم هذا أو ذاك إلا فى حراسة العدل الاجتماعى الصحيح ؟

حسن الخلق

فضيلة إنسانية ، حض عليها الدين ، وجعلها ثمرة لكثير من العبادات التى أمر بها ، واعتبرها أمارة الكمال البشرى فى أرقى مراتبه حتى لم يوصف النبى صلوات الله عليه وسلامه إلا بها « وإنك لعلى خلق عظيم »

فى معرض مدحه وبيان فضله . والمجتمع الذى يتوفر حسن الخلق فى معاملاته هو هدف الرسالات العظيمة من دينية ودنيوية . ونحن إذا حللنا سوء الخلق ، وأرجعناه إلى عناصره التى يتكون منها كما يتكون الماء من عنصريه المعروفين ، لوجدناه مزيجا من جهل وفقر ، أو جهل ومرض ، أو جهل وترف .

وإن خلو المجتمع من هذه العناصر ، يتبعه غالباً خلوه من شراسة الأخلاق وضعة السلوك . وإن المجتمعات التى يروقك شرف معاملاتها ، وجمال آدابها ، وصدق اتجاهاتها ، هى هذه المجتمعات التى تأصل فيها العلم وسادتها العافية ، وتقاربت فيها العقول ، وتساوت فيها الحقوق ، وأمكن فيها التفاهم والتعارف ، وتجاوبت فيها العواطف حتى لتكاد التحية العابرة فى الطريق أو فى الترام تؤسس حباً مكيناً بين أصحابها . أما هنا فالحرمان ملأ النفوس بالبغضاء ، والتفاوت البالغ بين الثقافات والمشارب والمنافع جعل الناس يتنفسون فى جو من الشراسة والتناكر .

وفى البيت أو فى الشارع ، فى القرية أو فى المدينة . يكون من أيسر الأمور أن تتحول المناقشات التافهة إلى معارك حامية ، ثم تبحث عن حسن الخلق فلا تجد إلا قشرة خفيفة وراءها جفاء غليظ ! .

ولا عجب فهذه النتيجة هى آخر ما يمكن للدين أن يصل إليه بالكلام أما إذا أردنا النتائج العملية العظيمة ، فلها طريق أخرى . وسنجد فى هذه الطريق أن حسن الخلق ثمرة دانية القطاف ، فى كل مجتمع ذكى غنى قوى . يصل الدين إلى تحقيق أغراضه فيه بحسن توزيع العلم ، وحسن توزيع المال ، أما قبل ذلك ، فلا موضع لأمل ، ولا جدوى فى عمل ! ذلك لأن الخلق ليس شيئاً يقول له الخطيب المجيد : كن فيكون ! بل هو أثر تفاعل النفس مع البيئة فى البيت والشارع والعمل والمدرسة وغير ذلك . فيجب تكييف هذه الأشياء كلها لتعين على تحقيق ما نريد .

شرق جديد

من الكلمات التى كنت أستمع إليها وأظنها من الحقائق المسلمة ، أن الشرق موطن الروحانيات وملهم العالم مثله العليا ، وموئل الفضائل الجليلة ، إن نبت بها دار أو تنكرت لها أقطار !! وأن ربوع الشرق أتخمت بهذه النظرات الإنسانية العليا حتى صاح « أمين الريحانى » صيحة الوجل من كثرتها يريد أن يستبدل بها بعض الإنتاج المادى الذى زخر به الغرب فهو يقول « أنا الشرق عندى فلسفات ! من يبيعنى بها دبابات وطائرات » .

هذه الكلمة الناطقة بأن الشرق وطن الفلسفات الروحية المجردة وخصم الأفكار المادية المحضة هى — عندى — موضع نظر الآن ويجب أن نعرضها على ميزان النقد لنعرف حقيقة ما تنطوى عليه ولنعرف كذلك قيمة مالدينا وقيمة مالدى غيرنا فلا نضل ولا نخزى ! ! لقد بحثت عن هذه الروحانية المزعومة فى مظانها المختلفة فلم أجد لها أثراً يذكر . أتجدها فى حياة الكبراء الشرقيين ؟ لا . إن باشوات هذا الوادى الخصب . وأشياخ العرب فى جزيرتهم القحلة ، ومهراجات الهند فى أرضهم المبهمة ، لايدرون شيئاً فى معايشهم المفعمة بالنعمة والثراء عن الروحانية وفلسفتها ! ! بل إن مقابح المادية المغرقة ومساوىء الانحباس فى بهيمية الحياة الدنيا لا تجد لها مجالا أوسع مما تجده فى هذه الطبقات المتكبرة . . . أين تجد هذه الروحانية ؟ أبين طوائف الفقراء المحرومين ؟ ؟ ! ! أحسبك لن تتصور السجن الذى ضم هؤلاء البائسين برجا عاجيا أو تتخيل ابتعادهم عن الطيبات والمباهج . زهداً مقصوداً وتعاليا محموداً ، إنما هى فوضى الأوضاع وفلسفة الحرمان ، وهى لا تساوى فى « سوق النقد » شيئاً نشترى به من الغرب دبابات ولا هراوات ، وما تقدم الغرب إلا يوم مشى فى طريق بعض تربه الموطوء بالأقدام هذه الفلسفات البائسة ! !

ولقد مرت الروحانية الشرقية بتجربة قاسية يوم خرس لسان كاهنها الأكبر « غاندى » عن استنكار المذابح الطائفية التى التهمت ألوف الأطفال والنساء والرجال غداة استقر الأمر على تقسيم الهند إلى شطرين وكان ذلك على غير رغبة المهاتما صاحب فلسفة السلام العام والبعد عن أسباب الخصام ! خرست هذه الفلسفة بعد أن ثرثرت قليلا لتتقن تمثيل دورها فما أجداها هذا الخداع إلا أن كشف نيتها وفضح طويتها فلا روحانية ولا روحانيين .

إن نوازع الأجسام إلى الطعام والشراب والنساء أخذت صورتها الحالمة فى ألف ليلة وليلة ، وأخذت صورتها الواقعة فى قصور الواجدين الفاسدين ، وتميز الشرق بأن بعض كبرائه يوزن بالذهب والماس ويبعثرها من غير حسيب !

نعم قد يوصف الشرق بالروحانية لأنه مهبط الديانات ومطلع أشعتها ومورث صحائفها المطهرة للعالمين . بيد أن حالة الديانات الآن فى الشرق أو فى الغرب لا تسر . وعاطفة التدين تواجه فى هذه الآونة أزمات خانقة والروحانية التى تدعو إليها الأديان تحتاج إلى بيان ينفى عنها ما لازمها من تشويه وتحريف على مر العصور .

والإسلام — وهو الدين الجامع لما قبله ، المانع لما بعده — واقع تحت سلطان حفنة من الفراعنة والقوارين ، جعلوا انتفاع الناس منه محدوداً جداً فأية روحانية تبقى فى الشرق بعد ذلك ؟ لاشىء !

الحقيقة أن الإنسان فى الشرق هو نفسه إنسان الغرب وأن الروحية والمادية هنا أو هناك تخضع لعناصر البيئة وأحوال المجتمع ، وهى عناصر وأحوال يمكن الهيمنة عليها والتصرف فيها وتكوين معادلات « جبرية » تنتج المادية فى الشرق أو الروحانية فى الغرب إن شئت . .

ليس تفكيراً ماديا . . .

يتوهم البعض أن إدخال العوامل الاقتصادية فى الرذائل والفضائل جنوح إلى التفكير الشيوعى القائم على النظرة المادية المحضة للحياة ! واستهانة بالقوى الروحية السامية التى يجب التعويل عليها فى عصمة الإنسان من السقوط فى مهاوى الإثم والعصيان ! وهذا التوهم خطأ فلسنا نغض من قيمة الجانب الروحانى فى تدعيم معنويات الإنسان وحفظ كيان الأمم ، بيد أن ذلك لا يعنى إغفال المشاهد الملموس من تولد الرذائل الخطيرة فى المجتمعات المصابة بالعوز والاحتياج ! ! بل إن الاضطراب الاقتصادى فى أحوال كثيرة جداً قد يكون السبب الأوحد فى نشوء الرذيلة وشيوعها . وقد بين ذلك نبى الإسلام صلوات الله عليه وسلامه فى قصة رمزية صغيرة . فعن أبى هريرة أن رسول الله قال : قال رجل لأتصدقن بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق . فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال اللهم لك الحمد على سارق ! لأتصدقن بصدقة ! فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ! فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد ! على زانية ؟ لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى . فقال الرجل : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى ! فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته . وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها . وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله . . .

هذه القصة تشير إلى أن الفقر قد يلجىء إلى السرقة والزنا . وأن علاج هذه الجرائم يكون بمحو العلل التى تمخضت عنها . . وليس القول بهذا شيوعية فى التفكير ولا مادية فى الحياة .

وقد ينشأ الاضطراب الخلقى عن الاضطراب الاقتصادى ثم تبقى النفس مريضة له أمداً طويلا حتى يتغلغل فيها وتغور جذوره فى طبيعتها

فإذا انزاحت الأسباب الاقتصادية المحرجة بقيت النفس على الحال الأثيمة التى اكتسبتها فلا تتخلى عنها إلا بعد جهاد طويل ! ! وهـذا إن دل على شىء فعلى ضرورة اليقظة الـكاملة للعوامل المستقرة فى البيئة حتى لاتفقد النفس طهارتها إلى الأبد بسببها ، وتصبح النصائح والإرشـادات عـديمة الجدوى أو قليلة الغناء . إن الاضطراب الاقتصادى يورث الأخلاق اضطراباً شنيعاً . بل يجعل الأجيال المتعاقبة تتوارث أنواعاً شتى من أخبث الأمراض النفسية والآفات العقلية الوخيمة النتائج البعيدة الأخطار .

وكم تظن الفجوة عميقة بين بيوت العبادة ونواحى المجتمع إذا كانت هذه توحى إلى الخير بأقوالها . وهذه توحى إلى الشر بأحوالها ؟ إن العلاقة بين الاثنين هى علاقة الحقيقة بالخيال ! ! فبينما القول البليغ يهتف بالناس فى المساجد أن فروا إلى الله ! إذا بالناس مثقلون فى المجتمع بقيود من الحاجة الملحة تحبسهم فى سجون الضرورات المذلة والعذاب الأليم فلا يستطيعون عنها فراراً . وودوا لو يستطيعون ! !

والحديث الذى يلمح فيه نبى الإسلام إلى أن المعاصى قد توقع فيها الضوائق المـالية حديث يضع فى أيدينا طرف الحقيقة التى بدأ الناس يفهمونها الآن كاملة .

الاستعمار الداخلى يمهد للاستعمار الخارجى

يقول أمير المؤمنين عمر — رضى الله عنه — (ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتفقروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم) . ويرى عنه كذلك هذا القول (والله ما أحد أحق بهذا المـال من أحد . والله لئن عشت لهم ليصلن الراعى فى صنعاء حظه من هذا المال) . وهذا الـكلام الذى قاله عمر . إن كان من عند نفسه . فنعما هو ! وجدير به أن يكون دينا للناس — إذ لا قيام

لدين أو خلق إلا فى ظله كما أوضحنا — وإن كان من وحى الدين الذى يعتنقه — وهو ما نعتقده — فلا موضع لخلاف فى فهم دلالته وتحقيق أغراضه ، فهو يتضمن دستوراً خطيراً من أهم دساتير الحرية الاجتماعية والاقتصادية . وحصانة قوية من الحصانات التى تتوفر للشعوب ، فتقيها أوزار الظلم الاجتماعى ، وظلمات الاستعمار الداخلى ونحن أحوج الناس إلى فهم هذه الحقائق جملة وتفصيلا . نحن الذين نسينا ذلك دهراً ، فوقعنا فى مخالب المستعمرين الباطشة .

إن الاستعمار يبقى للناس صور العبادات الميتة ، إذ لا غناء لهم فيها ، ولا خطر عليه منها ، ويساعد على جعل الدين مقطوع الصلة بكرامة الإنسان الفردية والاجتماعية والسياسية . فالدين فى نظره يجب أن يعادى هذه الحقوق المقررة بالفطرة ، أو أن يكون عوناً لمن ينتهكونها ! أو على الأقل ، يجب أن يكون محايداً بإزائهم وإزائها ، أما أن يؤيد الدين هذه الحقوق ، وأن يحض على النداء بها ، وأن يجعل فى مقدمة الشهداء من يموتون فداء لها ، فلا !

وعلى هذا المبدأ المجرم قام الاستعمار الداخلى فى الشرق ، فأسلم الشعوب لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، للغزاة الأوربيين الذين استولوا على كل شىء واستغلوه لمصلحتهم قبل كل شىء .

ثم جاء دور الأصرار فى الكفاح . واسترداد ما ضاع ، فمن الغفلة أن ننسى دروس الماضى وعبره « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » : ولقد لدغتنا المظالم فى الداخل ، فسممت دماءنا ، وهدت قوانا ، وسببت لنا هزائم مريرة ، فيجب ألا نمكن لها من العودة أبداً ، « إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ، أو يعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبداً »

الدين والاستعمار

للدين مع الاستعمار العالمى موقف حاسم ، لاتجد فيه إلا الخصومة الظاهرة ، والاستنكار البالغ . فقد وضع الدين معالم ثابتة للأخاء الإنسانى الذى يجب أن يسود بين شعوب الأرض إذ رفع من شأن أبناء آدم جميعاً ، وصان لهم كرامتهم ، ونوه بأن بداية خلقهم من ذات الله الكريمة ، وروحه العظيمة ، وأن الله عز وجل أسجد ملائكته لأبيهم ، ثم خصهم بفنون من المواهب والملكات أعلت شأنهم بين سائر الموجودات « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ولا شك أن الناس يختلفون فيما أوتوا من خصائص نفسية وعقلية ، ولكن هذا الاختلاف لا يسوغ أن يكون باباً إلى التعادى والتناكر ، بل يجب أن يكون أساساً لتعاون بعيد المدى يأخذ القوى فيه بجانب الضعيف ، ويأخذ العالم فيه بيد الجاهل ويفيض المكثر فيه على المقل ! أما أن يأكل القوى الضعيف ، ويستعلى العالم على الجاهل ، ويستعبد الغنى الفقير ؛ أما أن يشعر كل ذى فضل من جاه ومال وسلطان بأن له حق البغى فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ؛ فهذا فساد عريض ، وانتكاس بقيمة الإنسان ومنزلته ، وردها إلى قوانين الغابات وطبائع الوحوش ! ! وقد انطبع الاستعمار العالمى بهذا الطابع الأسود من قديم العصور . واحمرت جوانب التاريخ البشرى بدماء الضحايا المسفوكة إشباعا للغرائز الخسيسة والمظالم الفادحة . ولم تتورع الحضارة الغربية الأخيرة — برغم تقدمها العلمى الهائل — عن الانزلاق فى هذا المنحدر الدنىء ، فهى تقاتل الشعوب المتطلعة إلى حريتها ، وتجتهد فى حرمانها من أسباب العلم والقوة والنهوض . وهى لا تريد إلا جعل

المستعمرات الشاسعة ، التى تضم أكثر من نصف البشر ، حقول استغلال ، وأهلها خدما يعملون لغيرهم ، ويكدحون لسادتهم البعداء والدخلاء . وقد أتيت الحضارة الأوربية من هذه الناحية ، فلم يزل التنافس الاستعمارى مثار قتال متواصل ، وحروب « تدمر كل شىء بأمر ربها . فأصبحوا لايرى إلامساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » .

وقاية

غير أن الدين الذى يعرف غوائل المرض ، لا يكتفى بالتحذير منه فقط بل يحصن أبناءه ضده ، ليكونوا بمأمن من فتكه وبطشه والحقيقة أن التدين الصحيح عدو الاستعمار الأول . لا يجد الاستعمار عدواً أمضى منه سلاحا فى محاربته ، واستئصال شأفته .

حصن الدين أبناءه ضد هذا الوباء وجعلهم — لو آمنوا بالله حقاً — أقرب الناس إلى التمتع بحرياتهم المطلقة ، وحقوقهم الكاملة ، وأشد الناس رفضا للضيم وثوراناً عليه ! ! وأول ما يؤسسه الدين لضمان ذلك المسلك تكوين البيئة الحرة فى الأمة ، تكوينا بين المعالم واضح الخطوط . ولإيجاد هذه البيئة ، يجب توفر عناصر ثلاثة هامة .

(١) الكرامة الفردية : وتقوم على حفظ حقوق الإنسان ، وتحريم دمه وماله وعرضه ، والارتفاع بها إلى مرتبة القداسة ، حتى أن النبى اعتبر حرمة المؤمن أقدس من حرمة الكعبة ، التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم ، وفسر حرمته بأنها حرمة دمه وماله وعرضه .

ثم حفظ للفرد شخصيته المعنوية — بعد المحافظة على شخصيته المادية — فطالبه بعزة النفس وأوصاه أن يستمسك بها ، وشرع من العقائد والتعاليم ما يؤكدها ، واستنكر أن تكون القلة المادية سبيلا للنيل من كرامة إنسان ، أو إذلال جانبه .

وفى ذلك يسوق القرآن قصة أقوام ارتكبوا هذه المحاولة : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

وقد استقصى الدين أسباب هذه الكرامة الفردية ، حتى أنه لينصح المؤمن ألا يعرض نفسه لنوع من الانكسار والغضاضة إذا هو أخذ على نفسه تنفيذ أمر لا يقدر عليه ، ثم ظهر عجزه عنه ، فينصحه النبي صلوات الله عليه وسلامه « لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه . قالوا : وكيف يذل نفسه . قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق » ! .

وهذه شدة إحساس بالكرامة الفردية ، وضرورة تدعيمها بالسلوك القويم « إياك وما يعتذر منه » .

(٢) الكرامة الاجتماعية : وتقوم على المساواة بين الطبقات ، وإقامة الموازين القسط بينها ، وجعل التكافل المادى والأدبى هو الرباط الذى يجمع شتاتها ويركز قواها ، فلا تكون النعمة احتكاراً على طائفة ، ويكون الحرمان نصيب أخرى . إذ أن هذه التعاسة مصدر ضعف عام ، ومثار سخط مكتوم ، تجعل أبناء الوطن الواحد لا يتحمسون للدفاع عنه ما داموا ليسوا سواء فى الانتفاع بخيره . ولأن الأشقياء فى بلادهم المتبرمين بأوضاعهم سيتركون مؤنة الدفاع عنه لمن يأكل خيره . وقديماً قال شاعر :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

وهذه الحقيقة هى سر الفتور والبرود الذى يسود الجماهير فى الأمم المستعمرة أو الشبيهة بالمستعمرة ، فلا بد من محاربة الاستعمار الداخلى حتى لا يكون هناك مجال لأى تدخل خارجى . وحتى تهب الشعوب على

قلب رجل واحد بإزاء أى هجوم يوجه إليها من أعدائها الآخرين ! .

وقد جعل الدين الموازنة بين طبقات الأمة ، وعدم استرقاق واحدة لأخرى من حقيقة الإيمان ، وقرنها بواجب العبودية لله وحده « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » . ومعنى الربوبية لغير الله هو ما قدمنا . فقد كان رجال الدين طبقة تتمم طبقة المترفين ، وتقاسمها بذخها ، وتفتات على جمهور الشعب فى ذلك « إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » فوصف القرآن هذه الحال وصفاً صحيحاً مجرداً ، ناعياً على الناس وقوعه منهم وفيهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

(٣) الكرامة السياسية : وتقوم على إيجاد الحكومة المعقولة المعتدلة ، التى يشعر أفرادها بأنهم أجراء الشعب وخدامه ، لا سادته وجلادوه . فان الحاكم المستبد الذى تنتهى تصرفاته بإذلال الشعب ، واحتقار رأيه وكبت رغائبه ، هو الحاكم الذى يمهد تمهيداً واسع النطاق للاستعمار ، ويفتح أبواب البلاد على مصراعيها للعدوان الأجنبى .

ومما لا ريب فيه ، أن سياط الحكومة فى الداخل ، توطىء الظهور لقبول السياط من الخارج ! ومتى انحنت القامات مرة لمن يريد ذلك من الحكام المجرمين ، انحنت مرة ومرة لمن يشتهى ذلك من طغاة المستعمرين ؛ ومن ثم وضع الدين مبدأ القصاص من الحاكم ، حتى لا يجرؤ على ضرب الناس كلما بدا له . وقد بدأ النبى (صلوات الله عليه وسلامه) فطبق المبدأ على نفسه ، حتى تكون منه الأسوة الحسنة ، بينما كان رسول الله يقسم شيئاً إذ أكب عليه رجل — زاحمه وضايقه — فطعنه الرسول بعرجون كان معه ، فتألم الرجل ، فقال له الرسول : تعال فاستقدمنى — اقتص — فقال بل عفوت يا رسول الله » .

ولما كان ظلم الحاكم واستباحته للرعية خطيراً فى نتائجه ، ويعتبر تهديداً لسلامة الدولة وإضعافا لكيانها وانتقاصاً من قدرتها على المقاومة الصادقة للمعتدين ، فقد أرشد عمر بن الخطاب جمهور المسلمين على عهده إلى حقوقهم كاملة فقال : « إنى لم أبعث عمالى ليضربوا جلودكم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، فمن فعل به ذلك فليرفعه إلى ليقتص منه » فقال عمرو بن العاص — معترضاً — : « لو أن رجلا أدب بعض رعيته أتقصه منه ؟ ! » فقال عمر : « أى والذى نفسى بيده أقصه منه . وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه » ! .

وكتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز وهو عامل له :

— أما بعد — فإن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شىء من العذاب ؟ .

فكتب إليه عمر : أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله ! — إذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك ماقبله عفواً وإلا فأحلفه فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم أحب إلى من أن ألقاه بعذابهم والسلام ..

وبهذه الوصاة رفض الخليفة الراشد مبدأ الضغط على الجمهور وإهانته حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه . فهل تعرف ذلك حكومات شرقية كثيرة . . . ؟

وروى أن قوما من السكلاعيين سرق لهم متاع فاتهموا أناسا من الحاكة ، فأتوا بهم النعمان بن بشير رضى الله عنه فحبسهم أياما ثم خلى سبيلهم . فأتوا النعمان وقالوا له : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان ؟ فقال النعمان ما شئتم ؟ إن شئتم ضربتهم فإن خرج متاعكم فذاك ؟ وإلا أخذت لهم من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم ؟

فقالوا هذا حكمك ؟ فقال هذا حكم الله ورسوله . . . وبهذا رفض الصحابى الجليل مبدأ تعذيب المتهمين لحملهم على الاعتراف فهل تجد من هذه الأمثلة وغيرها شيئا يعين الأمراء والولاة على الاستهانة بحقوق الناس وحرياتهم ؟ . .

ومع هذا الهدى الواضح فى تقرير الكرامة السياسية ، فقد نكب الشرق بحكومات قصمت ظهره من طول ما أهانته وأذاقته الهوان ، ومن طول ما ادعى أصحابها زوراً ، وانتفخوا غروراً ، فضاعوا وأضاعوا ، وضلوا وأضلوا ، « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا . وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

ضرورات

تلك هى معالم البيئة الحرة ، كما رسمها الدين ، أتراه نسى منها عنصراً ، أو أهمل منها مظهراً ؟ كلا . غاية ما هنالك أنا نجدها مطمورة فى بطون الكتب ، لا تظفر بمن يعمل بها ، ولا بمن يعمل لها ! وأنه وجد من رجال الدين — أعنى الرجال الذين مثلوا الأديان كلها فى كل عصر ومصر — من خرج عن هذه الحدود ، مثل ما خرج تماماً الرجال المدنيون عن مبادىء الحرية والأخاء والمساواة التى نادوا بها ، ثم كفروا بتطبيقها فى أكثر بلاد الدنيا التى استمعت لها وخدعت بما وراءها ! .

فالآفة ليست فى الدين . ولا فى المبادىء العظيمة القريبة من حقيقته ، إنما الآفة فى النفاق السياسى الذى ضلل الإنسانية عن غايتها ، والذى أدار رحى المطامع على أكباد الأمم المسكينة فمزقتها ! وهذا

يوجب على الجماهير أن تستيقظ لتضع حداً لهذا الافتيات الحقير ، وهذا الاستهتار الكبير .

وفى العدالة الاجتماعية والديمقراطية السياسية ضمان لتكوين البيئة الحرة ، وتنشئة الأفراد على الاستقلال الذاتى ، وتعشق الحرية الكاملة ، ورفض العبودية إلا لله وحده !

وحاجة الدين إلى هذه المعانى ليبقى كحاجة الإنسان إلى الهواء ليحيا ، وكحاجة السمك إلى الماء ليعيش . فإذا ضاعت الكرامة الفردية والاجتماعية والسياسية لأمة من الأمم ، ثم قيل إن الدين باق فيها ، فاعلم أن ما بقى ليس إلا رفاته الهامد وملامحه الميتة ! .

وعندما يشيع الغدر بالأمم ، واسترقاق الأحرار ، وأكل أجور الكادحين من العمال والفلاحين ، فلا موضع بعدئذ إلا لسخط الله وبطشه .

ومن هنا جاء فى الحديث القدسى عن الله عز وجل : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة — ومن كنت خصمه خصمته — رجل أعطى بى ثم غدر — أعطى عهداً أو حكما أو مالا — ورجل باع حراً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى — منه العمل — ولم يوفه أجره » .

بلى ، فتلك أمور يبرأ منها الدين ، ولا جرم أنه يقر كل نظام يحول دون وقوعها ، ويقى الناس غوائلها ! إنه لا يقره فحسب بل يدعو إليه ويناصره .

إنه لا شىء ينال من مناعة البلاد ، وينتقص من قدرتها على المقاومة الرائعة كفساد النفوس والأوضاع ، وضياع مظاهر العدالة ، واختلال موازين الاقتصاد ، وانقسام الشعب إلى طوائف أكثرها مضيع منهوك ، وأقلها يمرح فى نعيم الملوك . . ! !

ومثل هذه البلاد لا تكاد تنهال على أبوابها مطارق الفتح الخارجى والعدوان الأجنبي حتى تنهار الأبواب ، وتذل الرقاب وكأنما يجعل الله ذلك عقاباً لها على سوء تفريطها فى أمرها وعدم تنظيمها لشئونها الداخلية ، وقد ذكر القرآن أن بنى إسرائيل سلط عليهم أعداؤهم واستعمرت بلادهم لهذا السبب « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوّا كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار . وكان وعداً مفعولا . . » وهكذا نرى التعالى الباطل والنظام الأثيم يجر على البلاد ويلات الاحتلال ويعتبر ذريعة لوقوعها فى براثنه . ثم يذكر القرآن بعدئذ المرة الثانية لسقوط البلاد فى يد أعدائها ، وتعرضها لغزوهم « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيراً . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا » .

وهذا التحذير الرادع والتخويف الواضح ليس قسوة من القدر على الأمم التى تَختَلُّ فتُحتَلُّ ، والتى يسهل الظلم فيها فيسهل الظلم عليها ، فإن هذه الأمم أعضاء مريضة فى جسم العالم الإنسانى الحىّ . ولا بد من علاجها لتصح حالة العالم كله ، وقد تكفل القدر بهذا « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض . ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

ومما يتصل بالكرامة الاجتماعية للأمة أن يتقرر فيها مبدأ تكافؤ الفرص ، وإتاحة العلم والعمل والمغانم والمغارم للجميع على سواء ! ! .

وهذا من أوليات العدالة التى شرع الله لعباده . ومما يذكر أن عمر بن الخطاب أقر هذا المبدأ على أولاده ، ورفض أن يتميز أولاد أمير المؤمنين على سائر المؤمنين ، فقد أرسل أبو موسى الأشعرى — لما كان والياً للكوفة — بعض الأموال الحكومية إلى عمر مع ابنين

له كانا مجندين فى الجيش القافل من الكوفة إلى المدينة وأراد أبو موسى أن ينفع ابنى عمر من هذا المال المرسل إلى أبيهما فدلهما على شراء بعض المحاصيل الرخيصة فى الكوفة ليبيعاها بثمن أغلى فى المدينة ويأخذا لأنفسهما الفرق ! ولكن عمر استولى على المال المرسل وقاسمهما الربح الزائد لأن هذه الفرصة ما كانت تتاح لرجال الجيش على سواء ولا لابنيه بصفتهما الشخصية ، إنما أتيحت لهما لأنهما من بيت الحكم ، وربح من هذا الطريق لا يجوز !! .

وهذا التصرف من عمر شدة إحساس منه بضرورة تكافؤ الفرص بين المسلمين ، وضرورة قطع الطريق على الوسائل المريبة فى الاستغلال وجر المنافع الشخصية ، وتسليط الوساطات المغرضة لاقتناص الفرص السانحة من أى سبيل وبأى ثمن .

القلق فى بلادنا وحدها

لا ندرى هل سيظل العمران على وجه الأرض قرناً آخر أم لا ؟ ولا ندرى ما سوف تكون عليه أحوال الشرق الإسلامى وأحوال غيره من أمم الأرض الأخرى ؟ ولكننا نكتب وصفاً مقارناً للأحوال العامة التى نعيش اليوم فيها حتى يدرك أخلافنا بعد الشقة بين مثلنا العليا التى ورثناها من ديننا ، وبين الواقع البشع من حياتنا المريبة . ! وليدركوا كذلك بعد الشقة بين مجتمعنا الزاخر بالمظالم — وهو كما يقال مجتمع اسلامى — وبين مجتمعات الغرب الحافلة بآثار العدالة والاستقامة — وهى كما يقال لا إسلام فيها ولا إيمان ! وسيتوارى الدعاة إلى الإسلام خجلا ، عندما يجدون أنه باسم النبى العظيم « محمد » الذى عاش متواضعاً لين الجانب قد حكم جبابرة ، وقامت قياصرة وأكاسرة ، وأنه باسم هذا النبى الكريم ، الذى عاش فقيراً ، ولم يرث منه أولاده شيئاً ، قد جمعت ثروات وخزنت كنوز واستمتع أفراد وجاعت شعوب .

ولن نعدو فى الوصف ذكر المشاهد القائمة والمقالات المنشورة ، وسنعرف ما الذى عرا الخصائص التى جعلت الإسلام يسيطر قديما على القلوب والأقطار ويمثل فى تاريخ الإنسانية دور التجديد والنشاط والابتكار . ثم ما الذى أقعده فى هذه العصور عن أداء رسالته بل جعل بلاده نفسها فريسة الهوان والإذلال ولما كان كتابنا هذا خاصاً بالناحية الاقتصادية فإليك صوراً من نقائض الحياة فى بلاد وبلاد . . . ولنبدأ بالدولة العجوز انجلترا ، عدو الشيوعية الأول ، ولننظر روابط الطبقات فيها . ذكرت مجلة « آخر ساعة » تحت عنوان : الملكية . . والاشتراكية ما يلى :

« ثم تعجب وأنت فى لندن عندما ترى التوافق العجيب بين الاشتراكية والملكية . .

إن شعب بريطانيا أصبح يقدس الاشتراكية . . وهو فى الوقت نفسه يقدس الملكية .

والأسرة المالكة فى بريطانيا موضع حب واحترام وإجلال كل فرد.

وقد استحقت الأسرة المالكة الحب الذى تتمتع به . . إذ نزل الملك جورج عن جميع ممتلكاته للدولة مقابل مبلغ يتقاضاه كل عام . . وفتحت أبواب القصور الملكية — ما عدا قصر بكنجهام — لتدخلها الجماهير وتتفرج عليها .

ولقد أهدت الملكة مارى أخيراً — إلى الدولة سجادة صنعتها بيدها فى ثمانى سنوات وطلبت الملكة أن تعرض هذه السجادة فى مزاد بين دول العملة الصعبة . . ويضاف الثمن إلى رصيد بريطانيا من هذه العملة .

. . ويتمتع أفراد الأسرة المالكة بنفس الحقوق التى يتمتع بها كل مواطن فى انجلترا .

وعليهم نفس ما عليه من واجبات . فإنهم يدفعون الضرائب كغيرهم على ممتلكاتهم الخاصة . .

ولقد حدث فى عدة مرات أن طولب بعضهم بضرائب باهظة فاضطروا أن يفتحوا قصورهم الريفية للراغبين فى زيارتها نظير أجر . . حتى يستطيعوا أن يدفعوا الضرائب » .

ويقولون لك فى لندن أنهم لن ينسوا فرحة الأميرة اليزابيت بزوج من جوارب النايلون أرسله أحد أفراد الشعب هدية لها فى زفافها .

ولقد بلغ من الدلال فى الاستماع بالحرية هناك ، أن هذا التصرف النبيل من الملكة مارى كان موضع نقد لاذع من الشيوعيين الذين لم يقنعهم هذا الجهد الكريم المشكور وهاك مانشرته صحيفة « المصرى » .

استغلت اليوم جريدة الديلى « ووركر » الشيوعية العاطفة النبيلة ، التى أبدتها الملكة « مارى » والدة جلالة ملك بريطانيا أسوأ استغلال واتخذت منها مادة لبث دعايتها ضد الأسرة الملكية البريطانية .

ويذكر القراء أن الملكة الوالدة قد قامت بصنع سجاد جميل ثمين قضت فى نسجه أعواماً طوالا ثم قدمته هدية إلى الأمة البريطانية كى يباع فى أمريكا وتنفق الدولارات التى ستدفع قيمة له فيما يعود بالخير على بريطانيا الفقيرة إلى الدولارات .

وقد تحدثت صحف العالم بأسرها ، ومن بينها الصحف المصرية ، عن ذلك الشعور الجميل الذى دفع الملكة الوالدة إلى التفكير فى خير بلدها فى هذه الظروف الاقتصادية القاسية التى تمر بها بريطانيا .

وقد شاءت الجريدة الشيوعية أن تسخر من هذه العاطفة الكريمة فاقترحت فى مقال نشرته اليوم أن يحول جناح كامل من أجنحة قصر « بكنجهام » إلى مصنع ملكى لصنع السجاجيد يعمل فيه الملك والملكة

والأميرات ونبلاء ونبيلات المملكة المتحدة، وذلك كى تكسب بريطانيا من بيعها فى الولايات المتحدة ما هى بحاجة إليه من دولارات . .

وقالت « الديلى ووركر » إنه إذا ارتفع الإنتاج إلى عشرة آلاف سجادة فى الأسبوع فإن أثمانها ستعود على بريطانيا بدولارات تبلغ قيمتها أضعاف قيمة الدولارات التى ستتلقاها بريطانيا فى العام المقبل وفقاً لمشروع مارشال . .

وهذه هى المرة الثانية فى خلال هذا الأسبوع التى عمدت فيها الجريدة الشيوعية إلى النيل من الأسرة المالكة البريطانية .

فقد نشرت منذ أيام قليلة صورة كاريكاتورية تقارن فيها بين مركز الملك والملكة وبين مركز « سبترزخاما » الزعيم الأفريقى الذى قررت الحكومة البريطانية نفيه من بلاده لأنه تزوج من فتاة بريطانية بيضاء .

العدالة الاجتماعية بين انجلترا والحجاز :

والنظام الاشتراكى فى انجلترا مثل سام لتعاون السلطات كلها على رفاهية الشعب وتنفيذ القانون فى نطاق واسع شامل . ونثبت هنا مانشرته مجلة المصور تدليلا على هذا الاتجاه الدقيق تحت عنوان : ما حيلة الملك ، والأمر للوزير ؟ . .

« يذكر القراء ولاشك تلك الضجة التى أثارها زواج ابن شقيقة ملك انجلترا « اللورد هاروود » من ابنة ملحق نمسوى ، وحضور الأسرة المالكة حفلة الزفاف . .

ولقد استقبل الملك العروسين أخيراً عقب عودتهما من الرحلة الطويلة التى قاما بها . . وفى الحضرة الملكية ، قال اللورد الشاب لخاله الملك : « إن زوجتى تشاطرنى الفرح يا مولاى ، إذ نراك معافى وقد استعدت صحتك . . »

فربت الملك على يده قائلا :

— الحمد لله ، إذ لم يتجشم السير « جيمس ايرموث » — الجراح الملكى — عناء قطع ساق فى هذه المرة . . وعسى أن يعفى من هذا العناء دائماً ! .

وسأل الملك اللورد الشاب عن أحواله ، فقال :

— على ما يرام يا مولاى . . على أننى سأتخلى عن الأراضى التى أملكها فى « ليدز » . .

فهتف الملك فى دهشة : « ولماذا ؟ . . إنها من أقدم أملاككم ، ولكم فيها ذكريات عزيزة » .

— هو ذلك يا مولاى . . ولكن حكومة جلالتكم ترى أن توزيع الذكريات على أربعة آلاف فدان ، ترف يجب أن تتقاضى عنه ضريبة باهظة ! . .

وهز الملك رأسه وهو يقول :

— أوتحدثنى عن هذا ؟ . . إننى لأجهله . . ولكن ، ولكن ماحيلتى والأمر فى يدى مستر ستافورد كريبس ، وهو مخلص فى تطبيق القانون ؟! .

وليس بمستغرب فى بلاد هـــذه شئونها الدستورية وأوضاعها الاقتصادية أن تدور فيها انتخابات حرة ١٠٠ ٪ فتفشل فيها الشيوعية ١٠٠ ٪ ولا ينجح فيها نائب واحد .

فلنترك انجلترا الكافرة (كذا) إلى الحجاز موطن المقدسات الإسلامية ولنمسك قلوبنا بأيدينا قبل أن تذوب أسى وحسرة أو قبل أن تتقطع حنقاً وغضبا . . فماذا نرى ؟؟ هناك ألوف الألوف من قطعان البشر يردون أماكن القامة ليبحثوا فى مخلفاتها عما يقتاتون به من قشر البطيخ وغيره ، أجساد معروقة من طول الجوع تعلوها من وحشة الصحراء غبرة ، وتتوارى فى مزق من الثياب المهلهلة ، تحترف التسول فى موسم

الحج وتتهالك على قطع النقود الصفيرة عندما ترمى إليها صدقات رحيمة .

وفى زحمة هذه الجماهير الحافية العارية تنطلق كالسهام المارقة سيارات الكبراء — وهى من أحدث ما أخرجته مصانع العالم — مقلة ذويها إلى البساتين النضرة والمطاعم الدسمة ومفاتن الجوارى والغانيات ، وقد رئى أحد ركاب هذه السيارات قابعاً بجسمه داخلها ، رامياً برجليه من نافذتها فى كبرياء وعظمة ! !

إن الذى اخترع السيارة يستحيى من الجلوس فيها بهذه الهيئة ، ولو كان هذا الفقر الذى يرزح تحته الجمهور ناشئا عن طبيعة المعايش فى تلك القفار اليابسة لما كان لدينا مانقوله .

أما والحكومة تتقاضى من الحجاج ضرائب مباشرة تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات — عدا نفقاتهم الأخرى — أما وهناك المنابع الدافقة من الذهب الأسود « البترول » فالحالة تستحق النقد الصارخ لا النصح الهامس .

وإليك تقريرا نشرته « المصرى » عن الشئون المالية فى المملكة العربية السعودية ، ذكر التقرير أن الإيرادات العامة تبلغ ٨٧ مليونا من الدولارات — هذا غير ما أسلفنا بيانه عن رسوم الحج — وأن المصروفات تقدر ٣٦ مليوناً من الدولارات — ومع ذلك فالدولة تعانى أزمة تضطرها إلى الاقتراض ! على حين كان المنتظر أن يتجمع فى خزائنها وفر ضخم . .

العجز المالى بسبب البذخ

ويبدو أن هذا العجز المالى يرجع إلى البذخ والإسراف الشديد الذى يتصف به بعض أقارب الملك عبد العزيز آل سعود ، وكبار رجال حاشيته وموظفى حكومته . كما أن هناك مزاعم شتى تتعلق بالفساد الذى يضرب أطنابه بين هؤلاء الموظفين الكبار .

ويقال أن هناك ثروات ضخمة من الذهب ، مدفونة فى الرمال ، كما أنه وقعت حوادث تهريب كثيرة ، لأن قيمة الريال السعودى والجنيه الإسترلينى الذهبى ، تقل فى الحجاز عنها فى الأسواق العالمية الحرة .

مثال ذلك ما روى من أن إحدى الطائرات كانت تحمل موظفاً سعودياً لقضاء أجازته ، ثم اضطرت هذه الطائرة إلى الهبوط فى الأراضى المصرية ، حيث اكتشفت السلطات المصرية أن من بين أمتعة هذا المسافر الكبير عشرة آلاف من الجنيهات الذهبية ، التى يساوى الجنيه منها أكثر من ١٢ دولاراً .

ويقال أيضا أن كبار الموظفين السعوديين يقبلون على شراء الأراضى الواقعة على ساحل سوريا ، لأنهم يظنون أن تلك المنطقة ستقام فيها مصانع لتكرير البترول وستصبح المنفذ الجديد للبترول العربى إلى البحر الأبيض المتوسط .

وقد وصف التقرير حياة البذخ والترف الشديد الذى يحياه أقارب جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وتحدث عن الطائرات الخاصة والسيارات الفخمة التى يقتنيها هؤلاء الأشخاص ، وقال أن بعض الزوار الأجانب دهشوا عندما رأوا قصوراً خيالية قد تم بناؤها فى المملكة العربية السعودية ويقول التقرير أن أحد أنجال الملك (ولم يذكر اسمه) ، بنى جزءاً من قصره بحيث يكون صورة مصغرة طبق الأصل لفندق والدروف استوريا فى نيويورك . ويقال أن الأمير نفسه زار الولايات المتحدة ذات مرة واشترى أثاثاً أمريكياً بمبلغ ٤٠٠ ألف دولار من محل تجارى واحد .

مثل واحد لقاعدة مطردة

ويبدو أن الإستيلاء على المرافق العامة واستغلالها فى الملذات الخاصة قد سرت عدواه من وسط الجزيرة إلى ماحولها من الأمارات . فبدلا من الإفادة من موارد البترول فى رفع مستوى الشعب ، وسد خلته ، وتدعيم

ثروته ، تكبر أملاك بعض الرجال المحظوظين ! ويشتد عنفوان الاستعمار الداخلى وقد مات أخيراً الشيخ أحمد آل جبر الصباح أمير الكويت فذكرت الصحف أنه يعتبر صاحب أكبر دخل فى العالم إذ هو « يكسب » أربعة ملايين جنيه كل عام ، أو ما يعادل ٢٨٠ ألف جنيه كل شهر أو ٧٠ ألف جنيه فى الأسبوع أو ستة جنيهات وستة عشر شلنا فى كل دقيقة — على حد إحصاء الصحافى الانجليزى الذى يقول : إن هذا الدخل خالص الضريبة إلا ما يفرضه هو نفسه عليه ليجبيه إلى خزانته . ؟ ومصدر هذه الثروة البترول فانظر رعاك الله كيف تتبرع ملكة انجلترا بثمن سجادة من كد يديها وعينيها لوطنها . فيتحول الملك الخاص إلى عام إشارة إلى فناء الفرد فى الجماعة بينما تنعكس الآية فى الشرق الإسلامى فيتحول الملك العام إلى خاص إشارة إلى فناء الجماعات فى فرد . . .

ونحن نؤثر أن نكسر القلم قبل المضى فى سرد المقارنات والتعليقات المثيرة ولنتحدث عن أثر هذه الأوضاع المقلوبة فى حقيقة الإسلام كدين وفى مصاير أتباعه كأمة فهو ما يعنينا قبل كل شىء .

انتفاع الأمم بالإسلام سر دخولها فيه وبقائها عليه

لقد استقبلت الإنسانية الإسلام منذ أربعة عشر قرناً كما يستقبل المدلج المجهود مطالع الصبح الباسم ، يرى فيه الهداية والرشد . . أو كما يستقبل الرقيق المغلول المكدود بشائر الحرية والعدالة ، فهو يطفىء فيها ظمأ روحه إلى السيادة والسعادة . .

فإذا تركت المقياس الأدبى فى تقويم الإسلام كدين يحدد العلاقة بين الإنسان وربه على خير وجه ويدفع هذه العلاقة فى طريق مستقيم .

ونظرت إلى الإسلام بالمقياس المادى المجرد — على ضوء انتفاع الناس منه — لكان ذلك كافياً فى فهم انتشار الإسلام وإقبال الأمم المختلفة على اعتناقه .

لو كان هذا الدين « بضاعة » تصدر من الجزيرة — قديماً لا حديثاً — لأرسل أهل فارس والشام ومصر يسعون إلى جلبها والإفادة منها فى هدم السلطات التى عبثت طويلا بمصالحهم وبنت كيانها على أنقاض كيانهم . إذ كان المفهوم أن الإسلام ديمقراطية سياسية واجتماعية واقتصادية تؤاخى بين الناس فيما لهم وما عليهم . ومن ثم قامت حول الإسلام الأول أجيال تتعصب له تعصب الخبراء الفاهمين لا تعصب الحمق الجامدين أما الآن . فأنت ترى وتلمس مبلغ فساد التطبيق العملى بل الفقه العلمى للإسلام . ومبلغ إفادة الأمم الأخرى من الأنظمة التى تسودها . . . ثم نشأ عن ذلك أن الرأسمالية الغربية قامت فى بيئة تفهمها وتهضمها وتدفع عنها . وأن الشيوعية لها كذلك دولة تتعصب لها وتبشر بها . أما الإسلام ويجب أن يكون جبهة جديدة لا شرقية ولا غربية فإن أحوال أهله خليط من ديمقراطية واستبداد ومن رجعية وتقدمية ومن رأسمالية وإقطاعية . وهذه الأسماء كلها رموز لأشكال من الحكم ليس وراءها إلا الانهيار المعنوى والتبلد النفسى الأليم .

وعندما يكون بين جوهر الأمة وشكل الحكم فيها منطقة فراغ فإن أمورها لا تؤذن بخير قط .

وإذا كانت الشيوعية على ما بها من عورات وسوءات قد استطاعت تكوين قوم يتعصبون لها فكيف حالنا إذا اصطدمنا بها . من غير أن نكون الجيل الذى يتعصب لنظمنا الخاصة ، وأنى نقدر على ذلك إذا لم يحس أفراد الشعب جميعاً باطمئنان وارتياح إلى هذه النظم ؟ وإليك صورتين من صور التعصب للمبدأ إحداهما من روسيا والأخرى من أمريكا ولعل المستقبل يجنب الشرق الإسلامى العثار فيؤدى واجبه نحو تقاليده وأبنائه . . . فنقدم له صورة ثالثة أصدق وأصح .

من وراء الحدود

أما الصورة الأولى فللكاتب الروسى « إيليا اهرنبورج » .

ولقد رشح اهرنبورج نفسه لعضوية المجلس السوفييتى الأعلى . وهو يقول فى مقاله الذى أذاعه راديو موسكو : « إن شعبنا لن يعيش مؤتمراً بأمر الغير . وعبثا يحاول الرئيس ترومان أن يخدشنا ، كعبث محاولة السناتور ما كما هون أن يعضنا بنواجذه ، وإننا فى غير حاجة إلى إرشاد الجبناء من ملاك العبيد فى كارولينا ، كما أننا لا نخشى بائعى « الخردوات » فى المدن الواقعة على المحيط الأطلسى ولو كان هؤلاء يوزعون القنابل بدلا من « الدنتللا » ، ونحن مقتنعون بأن الاشتراكية أجدى من الرأسمالية ، وأن الأخوة أسمى من قانون الغابة وأن صداقة الشعوب أولى من كراهية الأجناس » .

ثم تابع القول : « على أننا لا نقترح تعليمهم وإرشادهم بل نترك أمرهم ليحكم عليهم التاريخ على أننا نقول لهم فى بساطة . إذا كنتم تظنون إنه لا يوجد ما هو أحسن من نظامكم الاقتصادى ، ومن غلاء المعيشة ومن كساد الأسواق ، ومن تقلبات السوق المالية ، ومن الإفلاسات . فلكم أن تحتفظوا بها وأن تسيروا سيرتكم التى ارتضيتموها » .

« بل يمكنكم أن تنظموا الإنتاج وفق طريقتكم وتعلموا أطفالكم وفق أهوائكم وتكتبوا القصص الإجرامية وتصنعوا أفلاما سخيفة ، بل لكم أن تضعوا أقدامكم على الموائد على شريطة أن تكون موائدكم التى تملكونها » .

« على أننا نعتقد اعتقاداً ثابتا فى عدالة مبادئنا ، وليست لدينا أية نية فى تدعيم هذه المبادىء بالقنابل . ولقد دافعنا عن السلم منذ الأيام الأولى لنشأة جمهوريتنا ، وسنظل هكذا ندافع عنه » .

ثم عاد يتحدث عن أمريكا فقال : إن الدولار أصبح معبوداً فى أمريكا . وقال : إنه حينما كان يقيم فى أمريكا سمع شابا يغازل آنسة بقوله « إنك تبدين لى كمليون دولار ، أى ما أجملك » « ولو أن مثل هذا القول وجه إلى آنسة سوفيتية لغضبت ولها الحق كل الحق فى غضبها » .

والصورة الثانية تكشفت عن وجهة النظر الأمريكية فى هذا التفكير الشيوعى الثائر . وأهل الولايات المتحدة مخلصون لحياتهم وراضون عن أسلوبها وليســـوا مأجورين للدعاية ضد روسيا ، وقد نشر مستر ليوناردشابيرو الصحفى المعروف مقالا هاماً عن روسيا ، وهو من علماء القانون أيضاً وقد درس أنظمة الاتحاد السوفيتى بدقة ، فقال : إن هناك فرقاً كبيراً بين الوعود والعهود التى كانت الشيوعية المتطلعة إلى امتلاك ناصية الأمر فى روسيا تقطعها على نفسها وبين الأعمال التى تحنث فيها البلشفية المنتصرة بوعودها السابقة ، فقد وعد الشيوعيون سكان روسيا فى سنة ١٩١٧ « بالسلام والخبز والأرض » وإلغاء عقوبة الإعدام ، ولكن بدلا من ذلك استمرت الحرب الأهلية سنتين . وبدلا من الخبز مازال الجنود الروس يذهلون لمستوى المعيشة فى شرق المانيا برغم مرور أكثر من ثلاثين عاما على تأسيس النظـام الشيوعى فى روسيا ، وأما الأرض فقد أخذها الفلاحون لكى تنتزع منهم مرة أخرى بواسطة نظام المزارع الجماعية الذى انتهى بخمسة ملايين إلى معسكرات السخرة لمعارضتهم له ، وأما عقوبة الإعدام فقد عادت إلى روسيا بعد أشهر قلائل من إلغائها .

ومن رأى هذا الكاتب أنه لا أمل فى عقد أى اتفاق أو أى تفاهم مع ساسة الكرملين .

وتحدث الكاتب عن الوعود التى وعد بها الشيوعيون الشعب الروسى بشأن مصيره السياسى ، وقولهم له أن دكتاتورية الدولة ستزول من

روسيا ويخلفها نظام يكفل حرية الفرد الكاملة ، ولكن حركات التطهير استمرت من عام ١٩٢٨ إلى اليوم ، وأعلن ستالين أنه لابد أن تبقى الدولة وأن يشتد ساعدها طالما كانت الرأسمالية موجودة فى أى مكان فى العالم ، ولم يكن من المصادفات أن أعدم « بوخارين » فى إحدى حركات التطهير المتتابعة ، فقد كان من أعظم مفكرى الحزب الشيوعى الروسى بعد لينين ، ومن أقوى دعاة اختفاء دكتاتورية الدولة لتوفير الحرية للفرد ! !

بعض ما عندنا !

ولعل هذا الاستعراض للمبادىء السائدة وعواطف المتعلقين بها يدل على مبلغ ما أصاب حياتنا النفسية والعقلية من اضطراب فى ظلال الأحوال الاقتصادية التى نعيش فيها .

لقد سمعت رجلا يشكو من جودة هضمه ويتساءل ماذا يفعل ليجيب صيحات معدته التى تعلو بين الحين والحين وهو لا يجد القوت ؟ وقرأت أخيراً نبأ العثور على جثة محترقة بالاسكندرية . فلما عرف صاحبها وانتقل المحققون إلى مسكنه وجدوه يعيش مع امرأته فى غرفة حقيرة كل مافيها لحاف قديم مهلهل قذر كان الزوجان يتغطيان به ويضعان رأسيهما على قطعة صغيرة من قضبان السكة الحديد ! .

وذكرت الزوجة أن رجلها كان دائم الشكوى من الفقر . . فلما وجه إليها المحقق السؤال التقليدى : هل لزوجها أعداء ؟ أجابت المرأة نعم ! وأشارت إلى بطنها صارخة المعدة يا بك ! عدونا الأول والأخير وهى أكبر عدو . . هذا القتيل فى الحقيقة صريع الفوضى الاقتصادية وخواء المجتمع من حقيقة الدين والعدالة والنظام .

وإذا كانت روسيا ستجند المتعصبين لها كيما يقاتلوا معها ، وأمريكا ستحشد المؤمنين بنظامها حتى يستميتوا من أجلها ، فهل الذين تقتلهم

نظمنا الاقتصادية البائدة هم الذين يدافعون عنها دفاع المتعصب المستقتل ؟

إننا نوجه القول إلى حكام الشرق الإسلامى المسكين :

« لقد أفسدتم دينكم وأضعتم دنيانا ، وبقى لكم من الدنيا ما تحرصون عليه ، وبقى لنا من الدين ما نتمسك به » .

وهذه البقايا المتهافتة توشك أن تزول ، فأمامنا الاستعمار الرأسمالى الغربى يتربص ، والاستعمار الشيوعى الشرقى يتهدد ، والصهيونية العادية الفاجرة تتلظ .

وما هكذا تقتنص المصالح أو تساس الشعوب :

أنا النـــذير لكم منى مجاهرة كى لا ألام على نهى وإنذار
فإن عصيتم مقالى اليوم فانتظروا أن سوف تلقون خزياً ظاهر العار
وتصبحون أحاديثا ملعَّنـــة يلهو المقيم بها والمدلج السارى

المشاكل العامة وسوء استغلال الدين فى حلها

المـــرض

فى مصر أمراض متوطنة كثيرة ، تنبعث من الديدان المنتشرة فى تربتها ومياهها ، والغبار المنبث فى جوها يرمد العيون . وثم أمراض أخرى فتاكة تنشأ من قلة التغذية ، وكثرة الإرهاق ، وسوء توزيع الأعمال والأموال والعلوم المختلفة . والتقدير المادى لقيم النفوس والأجسام ، يفرض على الحكومة العاقلة الرشيدة أن تحارب الأمراض بكافة الوسائل التى يملكها البشر ، ذلك فضلا عن التقدير الأدبى لقيم الناس وضرورة إنقاذهم من الغوائل التى تأتى على عقولهم وقلوبهم فيما تأتى عليه من أجسامهم وقواهم المنتجة .

والدين يحب العافية ، ويعتبرها النبى صلوات الله عليه وسلامه أفضل

ما أوتيه إنسان بعد الإيمان بالله . ويوصى الناس بطلبها من الله عز وجل بعد كل أذان ، واعتبر من الأدعية المأثورة التى يكررها المؤمن خمس مرات فى اليوم : « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة » وبديهى أن التماس العافية لا يكون بالتمنى على الله ، بل باتخاذ الأسباب الممكنة الموصلة إلى استئصال المرض وإشاعة الصحة العامة ، وبناء المستشفيات ، لذلك وتزويدها بحاجتها وبما هو فوق حاجتها من الأطباء والدواء ، وهذا — بداهة — بعد رفع مستوى المعيشة ، وتحوير الأوضاع الاقتصادية ، بحيث يستطيع كل فرد أن يأخذ نصيبه من الألبان واللحوم والفواكه وغيرها . !

حقيقة تلك يتضافر الدين مع الدنيا على تقريرها ، ويعملان معاً على تحقيقها . ولكن الناس فهموا أن الدين إن لم يرحب بالمرض فهو لا يبالى بدفعه ! وإن اهتم بدفعه ! فبالكلام القوى أو بالكلام المريض وذاك حسبه من واجب يفرضه على الحكومات ، ويوجه إليه الشعوب .

وعند ما كانت أوبئة الحمى تحصد الرجال والنساء والأطفال فى مصر العليا . وعند ما كان الموتى يحملون على الدواب كأنهم أكوام تراب ، لانهيار المناكب التى تستطيع الحمل ! استعانت الحكومة برجال الوعظ ! فى أعمال المكافحة ، لكى تستطيع إسماع القرى المنكوبة رأى الدين فى النظافة والوقاية . وهذا العمل خير فى ظاهره وباطنه لو أن انعدام النظافة والوقاية هو السبب الحق فى انتشار هذه الأوبئة الخبيثة ، أو لو كانت النصائح المجردة هى الوسيلة الحقة لمنع هذا . ولكن الناس يعلمون علم اليقين أن ثمة أسباباً هائلة ، وراء هذه القشور الظاهرة ، وأن نصائح علماء الدين لم تقف من سير المرض شيئاً ، لأن المرضى وذويهم أحوج إلى المال والعون والغذاء والكساء والدواء ، منهم إلى الخطب والنصائح والأحاديث والآيات .

إن الجائع لا يحتاج إلى وحى من السماء يقول له : كل . والمريض لا يحتاج إلى وحى كذلك يقول له : استشف . بل الناس بفطرتهم تحت سورة الجوع والمرض ، يتطلعون إلى الغذاء والدواء . فمن التمسح الباطل بالدين أن نقصر فى توفير الأغذية والأدوية ، ثم نرسل بدل ذلك حملة من الوعاظ .

لقد « أممت » مهنة الطب فى بلاد كثيرة . وأضحى لكل مريض حق واجب على الدولة أن تتعهده حتى يشفى ، مهما بلغت نفقات دوائه ، والتأمين الصحى على حياة الجمهور لا تستكثر فى سبيله الألوف وإنها لجريمة أن تتاح فرصة التداوى للأغنياء فى مستشفيات خاصة وأن يرمى بغيرهم فى الطريق .

وأخشى أن تضطرب العلائق بين العمال وأصحاب العمل فتستعين الحكومة برجال الوعظ لتسكين الخواطر وتهدئة الثوائر بدلا من الجنوح إلى الحلول الصحيحة الواجبة فى أمثال هذه المشاكل ، لأن الأمر لا يعدو الاستغلال الصغير للدين ، فيما تضيق به طبقات المنكوبين والمظلومين . !

ورأى الدين الصحيح فى هذه المشاكل يمكن فهمه من مصادره وهو أقوم السبل لإراحة الواعظين والموعوظين على السواء .

الفقـــر

يعتبر الفقر سبباً ونتيجة معاً فى سلسلة المشاكل التى نعانى ويلاتها ، والفقر فى نظر الدين قد يكون معصية يسأل الفرد عن الوقوع فيها . وقد يكون نكبة تسأل الدولة عن ضرورة تلافيها ، وعوام المسلمين يرون أن رقة الحال ضرب من التدين ، وأن الفقر فى الدنيا أمارة على الغنى فى الآخرة ، وهذا خطأ بعيد يعمل الكثيرون على إشاعته ، فالإسلام يعتبر الفقر مصيبة ، ويعمل على تخليص الناس من آثارها جهد المستطاع .

وقد امتن القرآن على النبي بنعمة النجاة من متاعب العيلة والحيرة واليتم فقال تعالى : « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى »، وكان النبي يسلك الفقر فى أحلك الأمور سواداً وأشدها على حياة الناس وقعاً ، فكان من أدعيته المأثورة « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر » . كذلك كان يقرن استدانة العوز والحاجة بسقطات المعاصى : « أعوذ بك من المأثم والمغرم — أعوذ بك من غَلَبة الدين وقهر الرجال » . وقد بين أن الرجل المؤمن هو الذى يملك شأنه ويحزم أمره ويستثمر قواه ولا يعيش فى الدنيا متصعلكا مضيعاً . روى سعد بن أبى وقاص عن النبي : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » .

وكراهة الإسلام للقعود والعيلة جعلته يرفع منزلة العمل ويعد التعب فيه جهاداً فى سبيل الله والهجرة فى طلبه هجرة إلى الله ولعل التنقل فى جنبات الأرض ابتغاء الغنى والعفاف هو بعض ما جاء به النظم القرآنى : « قل ياعباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة » . . .

ولم يكن النبي مسكيناً على المعنى الذى يفهمه الناس للمسكنة الآن من هوان النفس وإغلال اليد . بل كان الأعراب يرسلون إليه الهدايا لترد إليهم مضاعفة ، حتى أن أعرابياً غضب لأنه أهدى إلى النبي ناقة واحدة فردت إليه ثلاث نياق فقط ! وكان ينتظر من النبي أكثر من ذلك .

ولقد همّ النبي ألا يقبل هذه الهدايا التجارية العجيبة . على أن موقف النبي من المال كان مغايراً من وجوه عدة لموقف الناس مؤمنيهم وكافريهم منه ، فهو صاحب دعوة نفسية وعقلية ، تعتبر مبادؤها رأسماله الضخم أولا وآخراً ، فإذا انتظر الأولاد من آبائهم ميراث الدرهم والدينار ، فإن محمداً لا يورث الناس شيئاً من ذلك فقد ورد عنه : « نحن معاشر

الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » هو يقول ذلك عن نفسه ، بينما يقول لسعد بن أبى وقاص « لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » فإذا لم يكن النبى صاحب خزائن مفعمة فإن ذلك لا يعيبه قط . . إنما يخدش رجولة الرجل العادى أن تضيق حيله ، وأن يقف تحوله وأن تكثر ثرثرته عن الحظوظ العاثرة والأقدار القاهرة ، مع أن عيبه منه وداءه فيه لأنه يؤثر معيشة العاجزين القاعدين .

ومسئولية الفقر فى هذه الحال تقع على الرجل المقصر . غير أن هناك رجالا يأخذون للعيش أسبابه ويطرقون للعمل أبوابه ، ويحرق الواحد منهم دمه وأعصابه . . . ثم لا يجدون شيئاً بعد هذا الجهد المضنى ، أو يجدون شيئاً يمسك الرمق ويسد بعض الحاجات الملحة ، ثم يجف المعين وتسودُ الدنيا فى وجوههم وتضطرم فى نفوسهم ثورة مكتومة على المجتمع والدولة ، ويسوء ظنهم فى قيمة العمل والسعى . .

ومثل هذه الحال تظهر وتكثر عند ما تضطرب الأوضاع الاقتصادية وتتدخل أمور غير إرادية فى توزيع الخسائر والأرباح ، فربما أصابت القاعدين بالربح ، وربما أصابت العاملين بالخسارة ، والدولة مسئولة لا ريب عن إعادة التوازن وتنظيم الأمور وتحقيق العدالة . . ولا يجوز إقحام الدين فى الرضا بالقسمة والنصيب . .

لقد سمعت أحد الفقراء يشكو سوء الحال ، وقلة الربح برغم جده ، ويقول معتذراً أن الجنيه يقرع الباب أولا ويسأل . هل أخى هنا ؟ فإن قيل له نعم ، دخل . وإن قيل لا ، يمم شطر ناحية أخرى باحثاً عن مستقره إلى جنب أخيه . وقد يكون أخوه مدفوناً تحت التراب ، أو محبوساً فى جوف خزانة . وهكذا تعمل الأوضاع المضطربة على أن يزداد الغنى غنى والفقير فقراً . .

وهذا كلام ينطوى على صواب كثير ، وأكثر الحكومات فى العالم تأخذ به أخذاً واضحاً ، وتضع على أساسه سياستها الاقتصادية .

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا ، مكاسب الحرب والضرائب الاستثنائية التى فرضت عليها ، فما لا شك فيه أن أثمان البضائع قفزت بها الحرب إلى حد بعيد ، وبين عشية وضحاها أصبح التاجر الذى يملك ألفاً يملك عشرة آلاف أو يزيد ، واقتحمت هذه الأموال الزائدة طريقها إلى خزائن الغنى ، وهو لم يكلف نفسه حتى مشقة فتح الأبواب أمام هذه الوفود السعيدة التى حلت به فجأة ! . .

وبينما حالة الحرب تفعل فعلها هذا وترفع به طبقة من الناس . إذا بها تفعل نقيضه مع طبقات أخرى ، فتكلفها أن تقدم دمها ، وتفقد حياتها ، أو تكلفها أن تعيش عيشة تعسة لا خير فيها ولا غناء ، فكان لزاماً على الحكومات أن تعالج هذه المفارقات البعيدة وأن تحسم نتائجها المربكة فوضعت شتى القوانين لمصادرة الأرباح الاستثنائية ، وحاولت أن تخفف ضغط البؤس الاقتصادى عن الطبقات التى نكبت به .

وقد تكون هذه السياسات الموضوعة أفلحت فى تحقيق الغرض منها أو لم تفلح ، لكن يبقى البحث عن الدواء الدائم لحالات الحرب والسلم معاً ، تبقى الإجابة عن شكوى هذا الفقير الذى يريد أن يعمل ، وأن يربح ، وأن يدخل ميدان الحياة لينتصر فيه بجده ، أو أن ينهزم فيه بتفريطه ! .

ومن المؤكد أن الجهود التى يبذلها أصحابها ثم لا يربحون منها شيئا ، لا تذهب عبثاً . بل تمشى فى مسارب ملتوية ، ثم تنتهى إلى أقوام قليلى العمل عظيمى النتائج ، أى أن شقاء الملايين تسعد به — بطريق غير مباشر — حفنة من الرجال ! . وهذا ظلم فاضح ، ومن أكبر الفواحش

عند الله أن يبقى ، بله أن يستغل الدين لإبقائه . . يجب أن يدخل الناس ميداناً تتكافأ فيه الفرص وتؤدى الأسباب نتائجها ، وتتأكد فيه قواعد العدل الاجتماعى الصحيح .

موضع الزكاة من علاج هذه الحال

كثير من العلماء إذا ذكر عناية الإسلام بالفقراء ، وحدبه على الطبقات البائسة ، لم يجد ما يستشهد به على ذلك إلا الزكاة . تلك الصدقة ، التى فرضها الله فى أموال الأغنياء حقاً معلوماً يتسع لحاجات المنكوبين ، ويفرج به ضيق المكروبين . وهذا تفكير محدود واستدلال ناقص .

ذلك أن الزكاة لا تعدو أن تكون ضريبة إحسان . ومصارف الزكاة التى بينها الشارع تشير إلى هذا . ومكان الإحسان المالى فى بناء أى مجتمع ليس مكان القواعد والأوتاد .

ومن العبث أن تربط حياة قسم كبير من الأمة ، بالفضلات التى تلقى إليه من القسم الآخر . والشخص الذى يستطيع العمل من كد يده وعرق جبينه ، لا يجوز أن نفرض عليه الاعتماد فى حياته كلها أو جلها على الزكاة ، وإلا فقد انقلبت الزكاة تشريع إفساد لا تشريع اصلاح . . تشريعاً يعين على البطالة ويدفع إليها ، ما دامت الفريضة لا بد من إخراجها ، وما دام المحتاجون لا بد أن يأخذوا منها .

وتلك كلها نتائج لا يقصد إليها الدين ، ولا يمهد لها . وقد قال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « لا تجوز الصدقة على غنى ولا على ذى مرة سوى » فالرجال الأصحاء لابد أن تهيأ لهم وسائل العمل . والربح الوافر الذى يكسبونه من أعمالهم ، هو الدعامة الاقتصادية الأولى فى بناء كل مجتمع صحيح ، بحيث يكون موضع الزكاة معها ثانوياً يظهر مع طوارىء الضعف والعجز والتعطل والقعود ! . وهذا موضع الزكاة الواجب ومصرفها المعقول . .

ثم إن توفير أسباب العمل أمر تلزم به الحكومة ويفرض عليها . ويباح لها أن تتخذ من الوسائل الاقتصادية ما تراه كفيلا بتحقيق هذه الغاية العظيمة . بل يتحتم عليها أن تتخذ هذه الوسائل وأن تبتكر من المشاريع العمرانية والتحويرات المالية ما يقطع دابر التعطل ، ويسوق أفراد الشعب قاطبة إلى ميادين العمل والإنتاج . وليس فى دين الله ، ولا فى تعاليم الحياة ما يحول دون هذا . بل على العكس ، هناك من التوجيهات الدينية الخاصة والعامة ما يؤكد هذا المسلك ويحمده . فإن الإسلام مثلا يفرض التجنيد المالى إلى جانب التجنيد العسكرى ، ويحتم تعبئة النفوس والأموال لخدمة الحق والفضيلة والإيمان . وتجنيد النفوس وتجنيد الأموال ليس عملا عسكرياً بحتاً . ومن الخطأ فهم ذلك فى عصر تطورت فيه الحروب حتى أصبحت علماً وإنتاجاً يستنفد طاقة الأمم حتى لا يبقى لها قطرة ! . . فتجنيد النفوس والأموال هو عمل زراعى وصناعى وتجارى . هو تسخير للقوى المنتجة وجعلها تروساً قوية فى الآلة الدائبة التى ينبغى أن تدور فى أوقات الحرب والسلام معاً للاعـــداد والاستعداد .

ومثل هذه الحالة لا يبقى معها عاطل ، ولا يعيش فيها متشرد ، والمساهمون فى حركتها النشيطة هم جميعاً جنود مجاهدون يعرفون رسالة الحياة جيداً ، ويقومون بأعبائها على خير وجه . وإلى بعض هذا يشير الحديث الشريف : « إن الله يثيب فى السهم الواحد ثلاثة نفر الذى صنعه والذى ناوله والذى رمى به » .

وعلى ضوء هذه الحقائق تعرف القصد من قول القرآن الكريم : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فتستطيع كل حكومة عاقلة معقولة أن تسن من القوانين ، وأن تضع من النظم ما ترى أن فيه الوفاء بحاجة الأمة على اختلاف طبقاتها ، وفاء لا يبقى معه عاطل ولا محروم .

فليفهم الناس روح الدين — إن شاءوا — وليعلموا أن من حق القادر أن يعمل ، وأن يجاهد فى الحياة ما دام حياً . لا أن تتسول الحكومة له الإعانات ، وأن تفتح له مطاعم الصدقات . وأن يكون ذلك باسم الحنان الدينى أو وجوب إخراج الزكاة .

نَظَارِ[1] لكم أن يرجع الحق راجع إلى أهله يوما. فتشجَوْا[2] كما شَجَوا
على حين لا عذرى لمعتذريكمو ولا لكمو من حجة الله مخرج

مبادئ ماليـــة

تقييد الملكية

المال الذى يقع فى أيدينا ، هل هو ملك مطلق لنا نتصرف فيه كيف نشاء ؟ أم هو ملك مقيد تخضع فيه تصرفاتنا لقوانين المجتمع ، وتقف أو يجب أن تقف عند حدود معينة ؟ .

إن نصوص الدين تجيب على هذا التساؤل إجابة صريحة . وهى إجابة لا ترضى قط طوائف الانتفاعيين ولا الاستغلاليين ، لأنها تغل أيديهم عن العبث والفساد والظلم ! المال الذى فى أيدينا هو ملكنا على التجوز لا على الحقيقة . ونحن مستخلفون فيه ليعظر الله عز وجل ماذا نعمل به . فإما حكمت تصرفاتنا لنا أو علينا ، وإلى هذا يشير القرآن : « آتوهم من مال الله الذى آتاكم » ويقول : « أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وقد فهم بعض الناس إن محاسبة أصحاب الأموال على تصرفاتهم فى مالهم إنما تكون هناك . . . فى الدار الآخرة حيث يسأل كل مالى عن

---

(١) انتظروا .
(٢) تحزنوا .

ماله « من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ » كما جاء فى الحديث ، ولكن المفهوم من مبادىء الإسلام ، ومن تصرفات خلفائه الراشدين غير هذا فتصرفات السفهاء فى أموالهم وضع لها الحجر على حرياتهم الشخصية . وهذا مبدأ تستطيع الدول أن تتوسع فيه ، فكما تنقذ الفرد من حماقة سلوكه ، تنقذ المجتمع من حماقة بعض طبقاته ! ومبدأ من أين لك هذا ؟ أخذ به الخليفة الراشد — عمر — فصادر على أساسه بعض الممتلكات التى ارتاب فى مصدرها ، ورأى أن طريقة تملكها باطلة .

والقاعدة العامة فى هذا ونحوه نأخذها من قول القرآن الكريم : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » . فهدف الديانات والرسالات الأول : قيام التوازن بين الناس ، بإقامة العدل الاجتماعى والسياسى فيهم . وتشريع القوانين المادية والأدبية التى تكفل تحقيق هذه الغاية الكبيرة بينهم .

وبديهى أن الميزان الذى جاء به الأنبياء ، ليس الميزان الحديدى الذى يمسكه التجار . ولكنه الميزان القانونى الذى يمسك به المصلحون لضبط الأوضاع والأعمال ، وتوزيع الحقوق والواجبات ، وتنظيم الهيئات والطبقات ! . وهو ميزان تتجدد أحكامه بتجدد العصور ، وتتغير قوانينه بتغير الأمكنة والأزمنة ، ولكن قيام الناس بالقسط هو محور الارتكاز الذى لا يتغير أبداً ، والذى يوضع هذا الميزان له بياناً وفرقاناً .

وقد قال بعض علماء الأصول ، إن مصالح الناس المرسلة لو وقف دون تحقيقها نص أول هـــذا النص وأمضيت المصالح التى لا بد منها . وقالوا كذلك : إنه يجوز قتل ثلث الناس لإصلاح حال الثلثين ! فإذا كان إصلاح حال الجماعة الإنسانية يقتعد من الدين هذه المنزلة . فهل تقف الحقوق المكتسبة أو المغتصبة لبعض الطوائف دون إصلاح المجتمع العام ، وتحقيق السعادة لأكبر مجموعة من أبنائه ؟ وهل لا يجوز بعدئذ

تقييد مبدأ الملكية الزراعية والصناعية لتحطيم قيود الجهل والرذيلة والبأساء التى ترزح تحتها جماهير الشعوب ؟ .

إن التعنت فى هذا جهل بالدين ، وظلم له عظيم . . . وحساب الناس فى أموالهم إذا دنيوى وأخروى معاً ، ورعاية المصلحة الفردية والاجتماعية والسياسية تدخل فى نطاق هذا الحساب دخولا لا شك فيه ، وللحكومة — من وجهة النظر الدينية — أن تقترح ما تشاء من الحلول ، وأن تبتدع ما تشاء من الأنظمة لضمان هذه المصلحة وهى مطمئنة إلى أن الدين معها لا عليها ما دامت تتحرى الحق وتبتغى العدل .

ومنع المنافع العامة من أن تكون ملكا لشخص واحد ، وجعلها ملكا للدولة وحدها أمر لاشىء فيه . إذ ورد فى الحديث : « أن المسلمين شركاء فى ثلاثة : فى الماء والنار والكلأ » وهذا من قبيل التمثيل للأمور التى كان لا يجوز قديماً احتكارها لفرد ما ، إذ أن حاجة جماهير الناس إليها سواء ، فلا يصح تمكين يد واحدة من الاستيلاء عليها . فإذا اتسعت حاجات الناس باتساع الحضارة وتغير الزمن . فعلى الحكومة أن تضع يدها — باسم الشعب — على مصادر الثروة العامة كلها ، وأن تقصى المحتكرين أفراداً كانوا أو شركات من محاولة استغلالها لأنفسهم ، وتسخيرها وتسخير الشعب معها لمطامعهم .

دلالة المال المعنوية

تزكية النفس والضمير ، وترقية الخلق والسلوك من أهم ما عنى الدين بدرسه وغرسه ، وهو — وحده — مقياس الخير والشر ، وميزان القيم الصحيحة للرجال . وقد تواضع الناس من قديم على اعتبار هذه الحقيقة فوق الشك والجدل من الناحية النظرية . أما من الناحية العملية ، فوزن الرجال بجيوبهم قد يقدم على وزنهم بقلوبهم . ومقدار ما لديهم من مال

هو الذى يحدد مقدارهم بين الناس . حتى شكا الشاعر من أنه حين يطالب رؤية الشريف يريه الناس الغنى دائماً ، كأن الشرف فضة وذهب لا علم وأدب .

إذا قلت يوما لمن قد ترى أروني السرى أروك الغنى

ومثل هذه الحال جديرة بعلاج الدين ، حتى لا تنطمس الحقائق ، ويستحمق رأى الناس فى الفضائل ، ويتيهون عن طريق اكتسابها .

وقد بدأ القرآن الكريم فنفى أن يكون المال — وإن كثر — مظهراً لرضوان الله عن شخص ما ، كما نفى أن يكون فى الاقتار دليل على تجرد الإنسان من الخير والفضل فقال : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ... كلا » ويقول : « أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لا يشعرون » .

بل إن القرآن ذهب إلى أبعد من هذا فى نفى كل دلالة معنوية عن المال . فبين أنه بعض متاع الدنيا الذى ينتهى معها إلى فناء وعدم ، على حين يخلد الحق والخير ، ويبقى المستمسكون بهما أحياء بعد فناء الدنيا وما فيها . وأنه لولا تخوف الفتنة على ضعاف النفوس ، لقصر المال والجاه على الأراذل والأشرار : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

ومن الطريف أن النبى صلى الله عليه وسلم حكى « أن رجلا دخل الجنة فرأى عبده فوق درجته ! فقال يارب هذا عبدى فوق درجتى . قال نعم جزيته بعمله ، وجزيتك بعملك ! » . وهذا بيان جميل لرأى الدين الواضح فى أن الرجال بأعمالهم لا بأموالهم . وقد جاءت آيات شتى

تنفى كل دلالة معنوية للمال وتجابه الطبقات الفنية بالحقيقة التى يكثر نسيانها وينتشر الجهل بها أو تجاهلها حقيقة أن قيمة الرجل بما يعمل لا بما يملك !. ومع ذلك فموازين الحياة المختلة مازالت وما تزال تقوم على عكس ذلك . وشيوع البغى الاجتماعى والسياسى تبعاً لاختلال الأوضاع الاقتصادية ، يؤكد رأى القرآن فى المال عند مايفيض فيغرق ويهلك : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » . « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض» .

ويؤكد كذلك ضرورة التحكم فيه ، حتى لا يكون مثار بغى ولا طغيان .. فطالما أصيبت الإنسانية فى مقاتلها من قلة القوانين التى تضبط توزيع المال وتقيد استغلاله وإنفاقه . وطالما كان وجود المال فى الأيدى العابثة الفاجرة مثار إغراء بالعبث والفجور يكاد يخلع الإيمان من القلوب ، ويطرد الطمأنينة عن المجتمعات ، لولا صيحات التحذير التى تعيد الحق فى نصابه ، وترد إلى الفضائل والمثل العليا قيمتها الثابتة ، وتهون من شأن المال وأصحابه ، وذلك فى مثل قول القرآن الكريم : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » . . .

وأصحاب الأموال إنما يأخذون مكانتهم فى الحياة ووجاهتهم بين الناس لسببين . الأول : أن المال يعطى صاحبه قوة بالغة يحقق بها مآربه ، ويبلغ بها أغراضه ، ويستطيع فى ظلها الاستغناء عن الكثيرين من الناس والكثير من الأعمال المحرجة والمضنية والناس يدنيهم الاحتياج ويبتذلهم . ويقصيهم الاكتفاء ويمكن لهم . ومن ثم أدخلنا العوامل الاقتصادية فى تكوين الفضائل والرذائل ، ولم نغفل خطرها فى تكوين الشخصية الإنسانية ، والسبب الثانى : أن الدين يعد المؤمنين بحسنة الحياتين جميعاً ، فهم إن آمنوا وأصلحوا صلحت معايشهم فى الدنيا ، وصلح مستقبلهم فى الآخرة : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . فالسعادة فى الدنيا بعض الأجر المعجل للانسان على استقامته فيها .

وقد قال الله عز وجل فى أبى الأنبياء إبراهيم : « وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » .

ولذلك وهم الأكثرون أن الغنى منح إلهية تدل على الرضاء العالى . وأن السعادة المرجوة لاتقوم إلا على ركام كثيف من المال .

وقد تضافر هذان السببان على إعطاء الطبقات الغنية مهابة فى القلوب ، وسعة فى الجاه ، مما جعل جمهور الشعب يتلقى سطوتها بالقبول والانحناء ، تارة باسم الدنيا التى يملكها صاحب المال ، وتارة باسم الدين ، الذى يجعل الدنيا نصيباً مفروضاً لهم أخذوه باستعدادهم واستحقاقهم ...

ولكن الدين كما علمت لايرى فى المال أى دلالة معنوية . وطيب الحياة الذى وعد الله به المتدينين لايعنى كثرة المال وبسطة الرزق واتساع الجاه . فهذه أمور قد يصيبها المؤمن ، وقد يصيبها الكافر ، قد ينالها البعيد عن الله والقريب منه إذ قال الله تعالى : « كلا نمدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » . وقد ينكب المؤمن فى هذه الأمور لعوامل طارئة ، فلا تنقص قيمته ، أو تحدش كرامته ! . .

أما طيب الحياة المفروض للمؤمن ، فمعناه أن يعيش كبير القلب ، رفيع الرأس ، يقبل على الدنيا ليأخذ منها زاده المادى ويقبل على الدين ليأخذ منه زاده الروحى . يحرص على إيمانه بربه أبداً ، ويحرص كذلك على نصيبه الحق الكريم من دنيا الناس ، فإن فقده فداء إيمانه بربه وإنسانيته ومثله العليا فإلى حيث ألقت ، وإن وجده عوناً ومدداً لحياة نقية ، بعيدة عن الهوان والطغيان فيها ونعمت !

والمذاهب السياسية والاقتصادية التى تغمر العالم فى الفترة الأخيرة من تاريخه ، تنظر إلى الدنيا هذه النظرة نفسها ، والرجال الذين ينادون بها يريدون أن يعيشوا فى ظلها سعداء ، أو يموتوا دونها شهداء .

فالشيوعية مثلا فى روسيا وعدت جمهور الشعب بحياة لا شقاء فيها ولا جوع ولا بأساء ، فإذا تحمل جمهور الشعب الشقاء والجوع والبؤس فى سبيل الذود عنها ، حين وقعت الحرب بين روسيا وألمانيا . فليس ذلك طبيعة النظام الذى ارتضوه لأنفسهم ، ولكنها طبيعة الحرب التى فرضت عليهم . وما يقال عن الشيوعية يقال عن النازية ويقال عن الديمقراطية . فكل دين أو نظام يعد أصحابه الخير الكثير ، ولكنه لا يكذب إذا كلف أصحابه أن يقدموا أنفسهم وأموالهم وكل خير لديهم فى سبيله ! غاية ما هنالك أن الأنظمة المدنية لا تعد أشياعها إلا بأجزية مادية قريبة . أما الدين فيعد أتباعه بالآخرة إن هم فى سبيله فقدوا الدنيا ! هل يفهم أحد من ذلك أن الدين يكره الدنيا ويحتقر المال ؟؟ إذا كان الدين يتهم بذلك ، لأنه يأمر الناس أحيانا أن يضحوا بالدنيا ، وأن يزهدوا فى المال . فإن الأنظمة المدنية والمبادىء الإلحادية ، ينبغى أن تتهم كذلك بنفس التهمة ، لأنها كلفت أصحابها أن يضحوا بالرجال والأموال ؟ ولكن أحداً لم يتهمها بذلك ، لأن سوء الفهم للدين وحده موفور للأسف .

أما سوء الفهم فى المبادىء والأنظمة الأخرى فقليل أو معدوم ! ليست للمال دلالة معنوية مجردة على خير أو شر ، وإن كان من الممكن أن يكون خيراً ، ومن الممكن أن يكون شراً على حسب الطرق التى يؤخذ منها وينفق فيها ، غير أننا إذا أردنا بناء عالم جديد تمتزج فيه الدنيا بالدين ، لخير الإنسانية ومستقبلها ، فلنضع نصب أعيننا أولا ضرورة تقارب الملكيات ، وتكافؤ الفرص وتساوى الأفراد فى الحصول على المقومات الأولى للإنسان من غذاء ولباس وعلم وخلق ، ففى هذا الجو وحده يكون التسامى بالمواهب العظيمة فقط ، وتقل أو تنعدم كل دلالة باطلة للمال على رفعة أو جاه .

ويجب ثانياً أن يوضع من الأنظمة مايجرد الأغبياء من مظاهر الذكاء ، وما يرفع الأذكياء عن حياة الخمول والتعطل . وذلك يتطلب تقويم كفاية الفرد تقويماً مادياً فمن ارتفعت منزلته الأدبية ارتفعت منزلته المادية ، وقد كان أبو بكر يوزع المال على الناس سواسية ، فلما جاء عمر رفض هذا التقسيم وأعطى الناس حسب منازلهم وقال : «الرجل وبلاؤه ، والرجل وسابقته » وحجة أبي بكر فى صنيعه أن حساب الناس على أعمالهم وجهادهم إلى الله وحده ، فى الدار الآخرة ، أما الدنيا فالأمر أمر معد يجب أن تملأ وأجساد يجب أن تكسى ، يستوى فى ذلك النشط والكسول والمتقدم والمتأخر ! لكن عمر أبى إلا تحقيق العدالة وتنظيم الأوضاع وتكريم المتقدم وتأديب المتأخر فى الدنيا ، وحساب الناس بعد ذلك إلى الله .

حق الناس فى المال

لا يجوز أن يبقى رجل من غير دخل — قليل أو كثير — يكفل له المستوى الواجب لمعيشته ، وعلى المجتمع الدين أن ينظم أموره تنظيما يؤدى إلى هذه النتيجة المحتومة ، وإلا كان مجتمعاً لا دين له ، وفى ذلك يقول الرسول « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » . وقد أفتى ابن حزم وغيره من العلماء ، بأنه إذا مات رجل جوعاً فى بلد اعتبر أهله قتلة وأخذت منهم دية القتيل ، وقد اعتبر القرآن أنه من التكذيب بالدين أن تدع اليتيم ، وألا تحض على طعام المسكين فكيف يكون رأى القرآن فى بلاد لا تحض على طعام المسكين فقط بل هى تصنع الفقر والمسكنة ، وتخرج إلى المجتمع الإنسانى ألوف الفقراء والمساكين ، فكأن أنظمتها الإقتصادية آلات جبارة تصوغ البؤس فى قوالب من أبناء آدم . ثم ترمى بهم على أفاريز الطرق

وفى خرائب الأبنية أو بين جدران السجون والملاجىء والمستشفيات ؟

هل نسمى هذا إلا أنه كفر بالدين ، وإنكار لنصوصه وقواعده ومبادئه ؟ بلى ، وأصحاب هذه النظم هم أصحاب الميسرة [1] فى الدار الآخرة « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ... إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » .

والمال الذى يكفى لإذهاب العيلة واستئصال الحرمان وإشاعة فضل الله على عباده يجب إخراجه — مهما عظم — من ثروات الأغنياء ولو تجاوز تجاوزاً بعيداً مقادير الزكاة المفروضة فمقادير الزكاة ليست إلا الحد الأدنى لما يجب إنفاقه ، وقد ورد عن النبى « إن فى المال حقاً غير الزكاة » . ولنا كلام يأتى بعد فى أنصبة الزكاة التى فرضها الشارع . غير أننا نلفت النظر إلى أن الزكاة فى صدر الإسلام ، لم تكن المصدر الوحيد ، الذى رصد لمحاربة الفقر واستئصال شأفته . فقد كانت أموال الفيء والغنائم والخراج مصادر أخرى غزيرة النفع ، تعمل عملها الواسع فى تفريج الضوائق وسد حاجات اليتامى والمساكين والمعوزين . فإذا جفت بعض المنابع كان على المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملا ، وعلى الدولة أن تستنبط من موارد المال ، ما توازن به شئون المجتمع وتقيم به مصالح الناس . والدين لها فى كل ذلك ظهير .

وإذا كانت الغاية التى شرعت من أجلها الزكاة هى تحرير الفقراء من قيود الفاقة وإطلاق إنسانيتهم من إسارها الخالك فلنحقق هذه الغاية كاملة ولنحمل ما تفرضه علينا من تكاليف قليلة أو كثيرة ! لكن إبقاء كثير من الناس صرعى للفقر والمسكنة كان — والحق يقال — هدف

---

(١) أحزاب الميسرة الآن هم المعروفون بالميول الاشتراكية .

أكثر الحكومات المتتابعة فى العصور السابقة واللاحقة . إذ أن تجويع الجماهير بعض الدعائم التى تقوم عليها سياسة الظلم والظلام ، ومن هنا انتشر الفقر انتشاراً ذريعاً فى الشرق الإسلامى وسخر الدين ورجاله لحمل الناس على قبوله ، واستساغته وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنى تفسيراً سقيما نسى الناس معه حقوقهم ، وحياتهم وجهلوا دنياهم وأخراهم وحسبوا الفقر فى الدنيا سبيلا إلى الغنى فى الآخرة كما أسلفنا القول . ونحن لا ننكر أن هناك آثاراً دينية تحمد الفقر وتنوه بشأنه ، ولكن مادلالة هذا وما معناه ؟ هل إذا قال شاعر :

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

قلنا إن الشدائد خير ... وألفنا مصلحة أووزارة نسميها وزارة الشدائد ، لتذيق الناس لباس الجوع والخوف ! ! وإذا قال القرآن الكريم فى وصف حديث الإفك الذى طعن به شرف السيدة عائشة — صانها الله وكرمها —

« لا تحسبوه شراً لكم . بل هو خير لكم ، قلنا إن الإفك خير وألفنا جماعة لترويج الزور ورمى الناس به ، وتصبير الناس عليه !! وإذا وقفنا على حديث للنبى صلى الله عليه وسلم يمدح الفقر على النحو الذى عزيت به السيدة المتهمة بالإفك ، وجدنا من المتدينين من يؤلف طوائف من المتسكعين والمتبطلين ليعيشوا فى الدنيا فقراء بائسين ! !

أجل ، فإن الشدائد خير ، وإن الإفك خير ، وإن الفقر خير ، مادامت الطبقات الكثيفة من الشعوب ستنام على الضيم تاركة النعمة والترف والبذخ لمن قيض لهم هذا كله من المحتكرين والمستغلين !! وهذا هو المنطق الذى يراد أن يقبل باسم الدين ...

إن مصائب الحياة قد تكون خيراً لاريب فيه كما تكون السموم دواء فى بعض الأحيان لأمراض الجسد . وهناك أفراد بل أمم تمتلىء

حياتها بمظاهر الكبر والجبروت والعدوان ، وتحتاج إلى قمع وتأديب يخفض من كبريائها ويحد من عدوانها فيبتليها الله بالآلام وليس فى شىء من هذا ما يبيح لنا الظلم الإجتماعى أو ما يقسم البشر إلى آلهة وعبيد . وسنة الله فى خلقه أن يقيم ميل الإنسانية إذا اعوجت . وأن يعيد إليها توازنها إذا اختلت وأن يرددها لذلك بين السلم والحرب والغنى والفقر والأمان والقلق « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » فلنترك للقدر الأعلى أن يبرز حكمته وأن يتخذ وسيلته فلا شأن لنا بذلك ! ! إنما كلفنا ونكلف أبدا أن نقيم العدالة بيننا وأن نفرغ فى تحقيقها وسعنا . وأن نبذل قصارانا فى رعاية مصلحة الجماعة وضمان حقوق الفرد متجنبين الفتن والمحن بكل مانملك من قوة وتفكير .

الزكاة والضريبة

المصالح المرسلة وأنواع القياس منزلة كبرى فى الفقه الإسلامى ؛ فهى مرجع وثيق لكبار الأئمة ، يستنبطون منه شتى الأحكام ، ويواجهون به صور الحياة المتجددة على مر الأيام . وإلى هذه الأصول التشريعية أمر عمر بالقصاص من جماعة قتلوا واحداً فقتلهم جميعاً ، وإليها كذلك لم يعتبر أرض فارس غنيمة تقسم أخماساً على الفاتحين ، فأبقى الأرض لأهلها وضرب عليها الخراج وعليهم الجزية . وإليها أيضاً أشار علىؓ بجعل حد الخمر ثمانين جلدة ، فإن من سكر هذى ، ومن هذى افترى ، والأمثلة كثيرة ، وليس هنا موضع سردها . . .